بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

أما بعد، فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ عن نشأة المدارس الإسلامية، وعن تطوّرِها ومسيرتها العلمية التاريخية، وعما جرى فيها منذ حوالي قرنين من الزمن من محاولات الإصلاح والتجديد.

كتبناها إجابة لدعوة طيبة من إدارة جامعة «بينگول»، حيثُ تُقيمُ الجامعة ملتقى عن هذه المدارس القائمة في تركيا، وشتى نواحيها.

جعل الله تعالى عملَنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، ونفع به القائمين على هذه المدارس، وجعله حافزَ إصلاحٍ وتجديدٍ لهذه المدارس؛ التي هي بأمسِّ حاجةٍ إلى الإصلاح والتجديد.

وقد رتّبتُه على مقدمة، وثلاثة فصول.

المقدمة: عن ضرورة إصلاح المدارس الإسلامية وعن نشأتها.

الفصل الأول: عن الأزهر الشريف: نشأته، وتطوُّره، وتاريخه، وجموده وانكماشه، وإصلاحه.

الفصل الثاني: عن المدارس الإسلامية في الدولة العثمانية: نشأتها، وتطوُّرها، وركودها وانكماشها، وما جرى من الجهود لإصلاحها وتجديدها.

الفصل الثالث: عن المدارس القائمة في شرق تركيا ماضيها، وحاضرها، ومساس حاجتها إلى الإصلاح والتجديد، ومحاولات تجديدها. وسبيل تجديدها وإصلاحها.

وقد ركَّزتُ أكثر شيء على الأزهر للأسباب التالية:

١ ـ أنه أقدمُ جامعة علمية استمرّت إلى العصر الحاضر.

٢ ـ أنّ وضع الأزهر قبل إجراء الإصلاح والتجديد عليه كان أقرب إلى وضع المدارس القائمة في شرق تركيا، والأسباب الداعية لإجراء الإصلاح على الأزهر متوفّرة مع زيادة في هذه المدارس.

٣ ـ أن القارئ لوَضْع الأزهر والملمّ بتاريخه، ماضيه، وحاضره، تتكوَّن عنده فكرة جيدة عما يجب أن تكون عليه المدارس الإسلامية، وعن الحاجة الماسّة لهذه المدارس القائمة في شرق تركيا إلى الإصلاح والتجديد والتعديل.

٤ ـ توفُّرُ المعلومات عن الأزهر لكثرة ما كُتِب عنه، وأجمعُها وأشملُها كتاب «الأزهر في ألف عام» للدكتور محمد عبد المنعم خفّاجي في ثلاث مجلدات، وقد اقتبستُ ما في هذا البحث عن الأزهر منه، لكني لم ألتزم بنصِّ عبارته، وغيَّرتُ منها إلى ما رأيته أفضل، وأضفتُ إلى ذلك ما رأيتُ إضافتَه. فجعلتُ النصَّ كأنه لي وليس له.

أما الخاتمة فتشتمل على أمور تتعلق بتعليم العلوم وتدريسها، وبالدعوة إلى الله، وبالوعظ والتذكير.

❊ ❊ ❊

المقدمة

وتشتمل على مبحثين:

الأول: ضرورة إصلاح المدارس ووجوبه.

الثاني: نشأة المدارس الإسلامية. وفيه فصلان:

الفصل الأول: عن المدارس النظامية.

الفصل الثاني: عن الأزهر الشريف.

المبحث الأول
ضرورة إصلاح المدارس ووجوبه

قضية إصلاح المدارس الدينية في العالم الإسلامي، قضية شغلت منذ حوالي قرنين من الزمن عقولَ كثيرٍ من علماء الأُمّة وحكمائها الغيورين على الإسلام، وعلى مصير الأُمّة الإسلامية، المتحمّسين للعلوم الإسلامية ومؤسّسات تعليمها، ولَهجَت بها ألسنتُهم، وبُذِلَت فيها جهودٌ كبيرة في أنحاء العالم الإسلامي؛ في مصر في الأزهر الشريف، وفي الدولة العثمانية حتى آخر عهدها، وفي جامع الزيتونة في تونس، وفي جامع القرويين في المغرب، وفي القارة الهندية، وفي سائر أقطار العالم الإسلامي؛ التي استمرّ فيها تدريس العلوم الإسلامية والعناية بمؤسسات تعليمها بأمان وحرية.

وليس من المبالغة إذا قلنا: إنه لا توجد في العالم الإسلامي مدرسة تُعنَى بالعلوم الإسلامية وبتدريسها لها أصالة وذكر ونباهة؛ إلا وقد أجرت الإصلاح على منهج تدريسها، وعدَّلَت من نظام تعليمها؛ وذلك لِـما رأى النبهاءُ من علماء الأُمّة وحُكمائها المعتنون بالعلوم الإسلامية ومؤسّسات تعليمها من الإداريين وغيرهم تغيّرَ الأوضاع في العالم، ودخولَ العالم عصرَ الحداثة والتقنية والتكنولوجيا، وما يتعلق بهذه الأمور من علوم ومعارف وثقافة.

وهـذا الأمـر كمـا يتـطلَّب من علمـاء الأمّـة أن يـكـونوا عالميـن بوجـه دقيـق وعميق بالعلوم الإسلامية كلّها؛ كذلك يتطلَّب منهم أن يكونوا ملمِّين بتلك العلوم والمعارف والثقافة، وعالمين بلغاتها التي كُتِبَت بها، وذلك حتى يستطيعوا أن يقوموا

بواجبهم؛ من نشر العلوم الإسلامية، والدعوة إلى الإسلام، ومن الوفاء بحاجة الأمّة المتجدّدة في هذا العصر؛ من حلِّ مشاكلها، والإجابة على نوازلها؛ لا سيما الحديثة المتجدّدة منها، وحتى يتمكّنوا من دفع الشُّبَه والشكوك والانتقادات الناتجة عن هذه العلوم والثقافة؛ لا سيما أن هذه العلوم والثقافة قد ظهرت على أيدي أعداء الإسلام؛ من الصليبيينَ الذين لا يألون جهداً في الكيد للإسلام والمسلمين، ولا يدَّخرون وسعاً في إثارة الشُّبه والشكوك والانتقادات على شعائر الإسلام ونصوصِه وأصوله وفروعه.

ولم نقصد من هذا أن تكون مدارسنا الشرعية مدارس طبٍّ أو هندسة أو كيمياء، وما أشبه ذلك، ولكن الذي نقصده أنَّ هناك علوماً ومعارفَ لها صلة وثيقة بالدِّين وعلومِه، تُعينُ على فهمه، وتُبرهنُ على صحّته، ويدفع بها عنه الشُّبه الواردة عليه، فهذه العلوم والمعارف يجب على العالِـمِ الدِّيني أن يتعلَّمها أو يتعلَّم منها القدر الضروريّ لما يجبُ عليه القيام به.

وإذا كان من واجب المسلمين ولاسيما العلماء منهم حمل رسالة الإسلام للعالَم كافّة، لأن النبي ﷺ قد أُرسِل للناس كافّة بشيراً ونذيراً، وأُرسِل رحمةً للعالمين، فمِن آكَدِ الواجبات على المسلمين عامة، وعلى علمائهم خاصّة؛ الاعتناء بتعلُّم اللغات، لغات الأُمَم الإسلامية وغيرها، والله تعالى لم يُرسِلْ رسولاً إلا بلسانِ قومِه ليُبَيِّنَ لهم. هذا من جانب.

ومن جانب آخر؛ قد صارت مؤسّسات التعليم الدّيني في العالَم الإسلاميّ؛ في العصور الأخيرة بحالةٍ لا تُحمَدُ عليها، وكان قد اعتراها التقهقر والضعف في كثير من العلوم الإسلامية، وفقدَتْ أصالتَها التي كانت عليه في العصور المتقدِّمة.

وبالإضافة إلى فقدانِ أصالتها وضعفها، غلب عليها الجمود والتعصّب والتقليد، وتجمع فيها علل ماضٍ سحيق كما سيأتي تفصيله في الفصول التالية.

وعندما شعر النبهاء الغيورون على المدارس الإسلامية من علماء الأُمّة وحكمائها بهذين الأمرين؛ انتبهوا لوجوب إصلاح المدارس، ورأوا من واجبهم أن يُعدِّلوا منهج تدريسها، ويجدِّدوا نظامَ تعليمها.

وذلك لأنه من المقرَّر أنَّ من فروض الكفاية على الأمّة أن يكون فيها، وفي كلّ بلدانها، ومدنها، وقُراها مِن العلماءِ مَن يقوم بما قدّمناه من العلوم والثقافة الإسلامية، وبنشرها بين أبنائها، ويفي بحاجةِ الأمّة الثقافية، والدينية، واللغوية، ويسدّ خللها الاجتماعية والفردية والأُسَرية، ويقومُ بما تتطلَّبه الدعوة الإسلامية من العلوم والثقافة واللغات.

فلمَّا علم أهلُ الحكمة واليقظة من علماء الأمّة، وأهلِ الغَيرة من رجالها أنَّ المدارس الإسلامية قد صارت ـ قبل إصلاح مناهجها ـ إلى وضعٍ لا تقوم بواجبها، ولا تنهض بالمهمات المنوطة بها؛ رأوا أنَّ من واجبهم إصلاحَها، وتعديلَ مناهجها حتى تستطيعَ أن تقومَ بواجبها، وتنهضَ بمهماتها؛ فقام هؤلاء العلماء بواجبهم في مختلف أقطار العالم الإسلامي، منذ أكثر من قرن من الزمن، فعدَّلوا مناهجَ تعليمِ مدارسهم، وجدَّدوا نظام تدريسها.

وأما مدارسنا الإسلامية في تركيا ـ التي هي موضوع حديثنا ـ فلأسبابٍ اقتضت ذلك لا زالت كما كانت عليه منذ مئات السنين؛ يُعوِزُها الإصلاح وتَفتقِدُ التعديل والتجديد.

ونحن ـ هؤلاء القائمين على هذه المدارس؛ التي هي محور الحديث، وموضوع هذه الندوة ـ أولُ سؤال يجب أن نسأله أنفسَنا ونتساءله فيما بيننا، ويكون مدار محاوراتنا، ومحور مناقشاتنا هو هذا السؤال:

هل تُخَرِّجُ هذه المدارس علماء يقومون بمتطلّبات العصر، ويفون بحاجة الأُمة، وينهضون بواجب الدعوة الإسلامية داخل البلاد الإسلامية وخارجها؟

مع أنَّ القيام بهذه الأمور من أهمّ فروض الكفاية على الأُمة؛ فأظنّ أنا كلّنا متّفقون ـ للأسف الشديد ـ على أنَّ الجواب هو تسعة وتسعون في المئة بالنفي.

نعم إنَّ هذه المدارس قد أثبتت نجاحَها بتخريجها للمئات من كبار العلماء، والآلاف ممن يصحّ أن يُطلَق عليهم اسم العالم أو العلماء، لكن هؤلاء العلماء في الجملة ـ ومع الاستثناءات القليلة ـ بعيدون عن الوفاء بحاجة العصر، والقيام بمتطلّبات الدعوة الإسلامية في العصر الحديث.

ثم السؤال الثاني الذي يجب أن نركز عليه هو:

إذا كانت هذه المدارس لا تقوم بهذا الفرض، ولا ترفع إثمَ عدمِ القيام به عن الأُمة؛ فهل هناك في الساحة العلمية مؤسّسات أخرى تقومُ بهذا الواجب العظيم؟

للأسف الشديد الجوابُ أيضاً بالنفي مئة في المئة، نعم يوجد في هذه المؤسسات الأخرى أفراد من كبار العلماء، ومن أهل الكفاءة بالقيام بحاجة الأُمّة وبمتطلّبات العصر، لكنه ما من أحد من هؤلاء إلا وقد أخذ نصيبَه من المدارس القديمة بطريقة أو بأخرى.

فإذاً يجب علينا أن نعلم ـ كما علم سلفُنا ممّن حاولوا إصلاحَ مدارسِهم من علماء الأُمة ومجدّديها، ونتحقَّقَ أن عندنا ـ معشر القائمين على هذه المدارس ـ مجموعةً من الخلل، وجملةً من العِلل في أنفسنا، وفي نظام تعليمنا وفي منهج تدريسنا.

فيجب علينا أولاً أن نحاسب أنفسنا «فإن الكَيِّسَ مَن دانَ نفسَه وعملَ لما بعد الموت» كما قال النبي ﷺ.

ويجب علينا ثانياً أن نُعدِّل من عقولنا وأفكارنا، ونُغيّرَ من نظرنا إلى الأمور فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. «وإنّ في الجسدِ مضغة إذا صلحَت صلحَ الجسدُ كلّه، وإذا فسدَت فسدَ الجسدُ كلّه؛ ألا وهي القلب». وإصلاحُ العقولِ والأفكارِ أصلٌ لكلّ الإصلاحات في العالم، فإنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول ما جاؤوا به هو إصلاح العقول عن الشركِ وأنواع الكفر، وبعد ذلك يأتي الدَّور لإصلاحِ الأعمال.

ويجب علينا ثالثاً أنْ نُصلِح من أعمالنا وتصرّفاتنا، ونُصلِح مدارسنا حتى تقوم بواجبها، وتخرّج علماء يقومون بمتطلّبات العصر، ويَفونَ بحاجةِ الأُمّة، وينهضون بواجب الدعوة الإسلامية حسب مقتضيات العصر.

فإذاً إصلاحُ المدارس ليس أمرًا من قَبيل التَرَفِ العلمي، ولا من قَبيل المحسّنات والكماليات والمندوبات والمستحبّات، ولا من قَبيل الحاجيّات التي تأتي في المرتبة الثانية من الواجبات كما يقول الأصوليون، بل هو أمرٌ من باب الضروريات، ومن آكد الواجبات لتوقّف صلاح الأُمة ووفائها بواجباتها، والقيام بالدعوة الإسلامية عليه.

وذلك أنَّ إصلاحَ الأُمم وتقدّمَها، ونهضةَ الدول وازدهارَها؛ منوطٌ بتوفّر عددٍ كبير من أهل الاختصاصات المختلفة، وبنشأةِ عدد يفي بحاجة الأُمة من أهل الكفاءات فيها.

وهذه الأمور منوطة بإصلاح مناهج التعليم في مؤسّسات تعليمها، فإصلاحُ مناهجِ التعليم كما أنه أصلٌ لصلاحِ الأُمّة، وتقدّم الدعوة الإسلامية؛ كذلك هو

مناط لتقدُّم الأُمم وازدهار الدول، والقيامُ بأسباب تقدّم الأُمة الإسلامية، ووسائل ازدهار دولتها مِن آكدِ الواجبات على الأُمّة، ومِن أهمِّ فروضِ الكفاية التي تأثم الأُمة بالتخلّي عنه، ويكون من أسباب ذِلّتها ووَهْنِها.

فإصلاح مناهج التعليم إذن قضيةٌ مصيرية مرتبط بها مصير الأُمم وتقدّمها، ونهضة الدول وازدهارها، وهذا ما دفع أهل اليقظة من علماء الأُمة وحكمائها إلى إصلاح مدارسها، وتعديل مناهج تعليمها.

والحاصل أن الإصلاح الديني في العالم الإسلامي مقترن بإصلاح المدارس، وإصلاحُ المدارس هو جعلها بحالة يمكن لها أن تقوم بمهمتها، ومهمتُها من أهمّ المهمـّات وآكدها، فإنها تشتمل تعليمَ أبناء الأُمة الإسلامية دينَهم، ولغة كتابهم تعليماً قويّاً مثمراً؛ يجعلهم حملة للشريعة، أئمّةً في الدِّين واللغة، حفّاظاً حرساً لكتابِ الله وسُنَن رسولِه، وتراثِ السّلف الصالح، والقيام بما أوجبه الله تعالى على الأُمة من تبليغ دعوتِه وإقامة حجّته، ونشر دينه.

فعلى رعاية هذه الأمور يجب أن نُقوّم خطّة الإصلاح في المدارس حتى تستطيع أن تقوم بمهمتها، وتتحقق آمال الأُمة فيها بتنشئتها جيلاً قويّاً من أبنائها؛ يستطيع أن يحمل رسالة الإسلام، وبتخريجها لأئمّةٍ علماء في الدِّين والشريعة واللغة، وسائر العلوم العقلية والاجتماعية المتصلة بها، على أن يكون هؤلاء العلماء مزوّدين مع هذا بقدرٍ صالح من العلوم الأخرى التي تفيدُهم في مجتمعِهم ثقافة عامة.

ومن رسالة هذه المدارس أن يُعنى بإصلاح خُلُق الأُمة، وأن يفهم الناسُ الدِّين على وجهه، وأن ينقى من التفسيرات الخاطئة الداخلة عليه، وأن يُنفى عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين؛ كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يحمل هذا الدِّين من كلِّ خلف عدولُه؛ ينفونَ عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين وتأويلَ الجاهلين».

والتجديد في الإسلام الذي أخبر النبي ﷺ بتحقُّقه على رأس كل مئة سنة بقوله: «إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدّد لها أمر دينها» رواه أبو داود. هذا التجديد ليس إلا عبارة عن تنقية الإسلام عن هذه الأمور الثلاثة الدخيلة عليه، ونفيها عنه، فإنّ التجديد عبارة عن ردّ الإسلام إلى حالته الأولى؛ التي كان عليها حين نزوله، قبل أن يخالطه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فالدِّين الحقّ هو الدِّين المنزل، وليس هو الدِّين المؤول، ولا الدِّين المنتحَل، ولا الدِّين المحرَّف.

وهاهنا نريد أن ننبّه على أمور متعلّقة بهذَين الحديثَين الشريفَين:

الأول: كما أنّ الحديثَين مبشِّران بظهور المجدّدين بعد كلّ فترة؛ يقومون بتجديد الإسلام وتنقيتهِ عن هذه الأمور الثلاثة الدخيلة عليه، كذلك هذان الحديثان يُنذِرانِ بأنّ الإسلام يدخلُه بعد نزولِه تأويلاتُ الجاهلين، وتحريفاتُ الغالين، وانتحالُ المبطلين، تكدّرُ هذه الأمور صفاءه وتعكِّرُ نقاءه، وينعيان على الأُمّة أو على معظمها بأنها ستتقبل هذه التأويلات الباطلة، وهذه التحريفات والانتحالات بقبول سيء، وستروج هذه الأمور الزائفة على الأُمّة، وتَنشَئ عليها الأجيال وتَألَفُها، حتى تحسبها من صميم الدِّين، وتدافع عنها دفاعها عن أصول دينها الصحيحة.

الثاني: أنّ مِن آكدِ واجبات علماء الأمّة هو تجديدُ الدِّين، والقيام بتنقيتهِ عن هذه الأمور الدخيلة عليه ونفيها عنه، وهذا واجبٌ على كل علماء الأُمة، وليس بواجب على فريق منهم، لأنه من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولكن أمام رواج هذه الأمور الباطلة على الأُمة، وتقبُّل الأُمة لها، وتنشئة الأجيال عليها وإلفهم لها؛ ينقسم علماء الأُمة إلى ثلاث فرق:

فريق كبير من علماء الأُمة تروجُ عليه هذه الأمور الباطلة، ويحسبونها من الإسلام، ويحاولون أن يُوجِدوا لها التخريجات، ويتكلّفوا لها التأويلات.

وفريق ثان من أهل الذكاء والعلم الدّقيق العميق يعلمون ببطلان هذه الأمور وزيفها، ولكنهم يهابون المجتمع الذي راجت عليه هذه الأمور والأباطيل أن يجاهروه ببطلانها، ويخافون سطوته أو سطوة بعض رجاله، فإما أن يكتموا ما عندهم من البيّنات والهدي، أو يُسرّونه إلى بعض خواصّ أصحابهم، وهذا أيضاً من الكتمان.

وفريق ثالث من علماء الأُمة ورثةُ الأنبياء، يجاهرون الأُمة بالحقّ ويَصدعون بالدّعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويُراعون الحكمةَ في دَعوتهم، وهذا الفريق يُعاني عنتاً شديداً، ويلاقي حرجاً عظيماً من عامّة الناس، ومن فريق كبير من علمائها، فويل لهم من الناس وويل للناس منهم، وهؤلاء هم المجدّدون حقّاً، وورثة الأنبياء صدقاً، وهم الذين أخبر النبي ﷺ عنهم في هذَين الحديثَين، وهم الأُمة التي أخبر الله تعالى بفلاحها، وبشّرهم به، وهم الطائفة المنصورةُ التي أخبر النبيُّ ﷺ «بأنها لا تزال قائمة على الحقّ لا يضرُّهم مَن خالفهم إلى قيام الساعة»، وهم الذين تحقّق على أيديهم البيضاء تجديد المدارس الشرعية، وإصلاح منهج تعليمها في العصور المتأخرة؛ في شتى أنحاء العالم الإسلامي، في الدولة العثمانية، وفي الأزهر، وفي المغرب العربي، وفي الهند، وفي غيرها.

الثالث: أن المحقِّقين من علماء الأُمة على أن كلمة «من» في حديث أبي داود للجمع وليس للواحد، وأنّ المجدّد فريق من علماء الأُمة يقومُ كلُّ واحد منهم بتجديد ناحية من نواحي الدّين، وفي قطر من أقطار العالم الإسلامي حسب حاجة ذلك القطر، وليس المجدِّد شخصاً واحداً يقوم بتجديد الإسلام بكل نواحيه، وفي كلّ أقطاره، كما ذهب إلى هذا كثير من العلماء.

وقد نظم السيوطيّ في هذا منظومةً رجا فيها أن يكون هو مجدّد عصره، فإنّ هذا يخالف واقع العالم الإسلامي؛ فإنه لا يوجد أو نادراً ما يوجد في العالم الإسلامي إمام من أئمة الإسلام جدّد الإسلام بكلّ نواحيه، وانتشر تجديدُه في عصره، أو فيما قاربه في شتّى أقطار العالم الإسلامي وكلّ نواحيه، وكل مَن عُدَّ من المجدّدين أو معظمهم كان تجديدُهم للإسلام في بعض نواحيه، وفي بعض أقطار العالم الإسلامي.

نعم إنّ إصلاح المدارس ليس بالشيء السّهل ولا الأمر الميسور، وذلك لأسباب تاريخية وثقافية وتقليدية وعلمية، وليس هو من السهولة بمنزلة إنشاء مدرسة حديثة على الطراز الحديث، ووضع نظامٍ لتعليمها ومنهجٍ لتدريسها، بل هو أمر يحتاج إلى جهود تبذل، ومشاورات تُقام، ومؤتمرات تُعقَد، وعقول تتقبّله، ومنهج متوازن لا تطغى فيه مادة علمية على مادة أخرى، وأساتذة يقومون بتحقيقه وتطبيقه، وأموال تدعمه، وإدارة سياسية تفسح المجال له وتؤيده.

لكنه على كل حال هو واجب لا يجوز التخلّي عنه، وفريضة لا سعة للتنازل عنها، يجب أن تُبذَل الجهود لتحقيقه، ولإفساح المجال لأسبابه ووسائله، وللحيلولة دون عوائقه وموانعه.

وإذا كانت هذه المدارس ـ التي هي موضوع بحثنا، التي هي أقوى مؤسسات لتعليم العلوم الإسلامية في تركيا ـ بهذا المستوى من الحاجة إلى الإصلاح والتجديد، وكان إصلاحها من آكَد الواجبات، ومن الضروريات التي لا يجوز التخلّي عنها، فما بالك بمؤسسات التعليم الأخرى القائمة في تركيا، ولاسيما الرسمية منها من معاهد الأئمة والخطباء، وكليات الإلهيات، ومستوى ضعفها واضح للعيان، ووَهْناً لا يحتاج إلى إقامة البرهان.

والله تعالى يتولّى هُدانا وتوفيقنا، وهو يتولّى الصالحين.

المبحث الثاني
نشأة المدارس الإسلامية

قد نشأ الشعور بالحاجة إلى إقامة المدارس الإسلامية، ومراكز تعليم الإسلام منذ أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ ـ وهو مُتحنِّث في غار حراء ـ بالقراءة باسم ربّه، وامتنَّ على عبادِه بتعليمهم بالقلم، وتعليمهم ما لم يعلموا، حيث كان أول ما أنزل الله تعالى على نبيه قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥].

فكان أقدَمُ المدارس الإسلامية؛ الحلقات التي كانت تُقام في دار الأرقم في مكة المكرمة قبل الهجرة النبوية، ثم كانت الحلقات العلمية التي كانت تنعقد في مسجد رسول الله ﷺ في عهد صاحبِ الرسالة العظمى بعد هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة، وفي مختلف العصور الإسلامية حتى العصر الحديث.

ثم قامت الحلقات العلمية في المسجد الحرام بعد فتح مكة، في العام الثامن للهجرة النبوية، وتَصدَّرَها كبارُ الصحابة، ثم التابعون مِن بعدهم، ثم تابعو التابعين، واستمرّت هذه الحلقات تؤدّي رسالتها في خدمة الثقافة الإسلامية، والفكر الإسلامي، وشباب المسلمين، في مختلف العصور حتى العصر الحديث.

ثم بعد أن بُنيتِ الفسطاط بأرض الكنانة، وبُني فيها جامع الفتح، الذي سمّي تاج الجوامع، أو جامع عمرو بن العاص، لم يلبَث أن قامت فيه حلقات علمية كبيرة، كان منها مثلاً حلقة عبد الله بن عمرو بن العاص، ثم حلقة الليث بن سعد، وحلقة الإمام الشافعي، وغيرهم.

وقبل إنشاء الأزهر كان جامع عمرو هو المكان المختار لإلقاء الدروس العلمية، فقد كان مركزاً اتّخذَه الصحابةُ والتابعون لنشر الدِّين والعلم، ولإقامة الحلقات العلمية فيه، وأخذت الحركةُ العلمية في هذا المسجد تنمو وتتّسع حتى أَمَّهُ الكثيرُ من العلماء والأعلام؛ الذين تركوا ثروةً كثيرةً من الكتب والتأليف، كما كان لتلك الحلقات فضلُ إخراجِ عددٍ كبير من الفقهاء والمحدّثين حتى أوائل القرن الرابع الهجري، وأشهر هؤلاء العلماء الأعلام: عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن وهب، وسعيد بن الصلت، ويحيى بن أزهر، وسعيد بن عبد الرحمن.

وكانت هذه الدراسة في أوّل أمرها دراسةً دينية فقهية؛ قامت في الزوايا التي أُنشِئت على مرّ السنين بالجامع العتيق، وأشهر تلك الزوايا زاوية الإمام الشافعي؛ التي كان الناس يُهرعون إليها لسماع شروح الإمام ومحاضراته، والتي تخرّج فيها عدد من أعظم الفقهاء والعلماء في ذلك العهد.

ثم بنى مجد الدين أبو المحاسن الأزدي البهنسي الشافعي وزير الملك الأشرف موسى بن العادل أيوب، زاويةً سميت الزاوية المحمدية، ووظّف في تدريسِها قاضي القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسي، وأوقفَ عليها عدّة أوقاف بمصر والقاهرة، ثم الزاوية الصاحبية التي أنشأها صاحب التاج محمد بن فخر الدِّين، وجعل لها مدرِّسَيْنِ أحدهما مالكي والآخر شافعي، وجعل عليها وقفاً بظاهر القاهرة، ثم حذا حذوه كثير من الأمراء وذوي اليسار المهتمّين بالعلم، فما وافى عام ٧٤٩هـ ـ ١٣٤٨ م، حتى زادت حلقات جامع عمرو على الأربعين حلقة.

وكانت هذه الحلقات العامة والخاصة منها تؤدّي رسالتها، فالعامة منها ما كان يقام يوميّاً بجامع عمرو، وما كان يُقام في يوم الجمعة خاصة حيث كانت حلقته تفوق حلقات بقية الأيام أهمية، إذ كان يوم الجمعة هذا يُعدّ موسماً علميّاً هامّاً، يُهرعُ

الناس فيه لسماع أكبر عدد من الفقهاء والشعراء والأدباء، وهم يتناقشون ويتباحثون في الفقه واللغة، ويتطارحون الشعر، ويروون الأخبار.

أما الحلقات الخاصة فهي التي كانت تُعقدُ في منازل أكابر العلماء والفقهاء، حيث كانوا يجتمعون بتلاميذهم وأصدقائهم؛ يقرؤون عليهم بعضَ شروحِ الفقه الإسلامي، وبعضَ كتب العبادات، ويروون بعض الأشعار، وقد تألّقت بعضُ تلك الحلقات، اشتهر منها بيت عبد الله بن الحكم الفقيه المالكي، وولدَيه عبد الرحمن ومحمد، وكانوا من أنبغ الفقهاء المحدثين حتى أوائل القرن الثالث، وكانت حلقاتهم موضع التقاء أكابر العلماء والأدباء المعاصرين الذين كانوا يَفِدُون على مصر من مختلف الأقطار، فما إن وَفَدَ الإمام الشافعي إلى مصر، حتى وجد من تلك الأسرة كلَّ عنايةٍ ورعايةٍ وإكرامٍ. فلما أقام حلقته في جامع عمرو، كانوا هم أول من شجّعه وحضر درسَه.

وظلّ التدريس في جامع عمرو على هذا المنوال عامر الحلقات، وموضعاً لنشر العلم والتعليم مدّةً طويلة، واقتفى أثرَه كثيرٌ من الجوامع الشهيرة، كجامع أحمد بن طولون، فلم يأت القرن الرابع حتى كان العلم في جامع عمرو قد وصل إلى مرحلة مُثلى؛ بفضل مَن كان يؤمُّه من أقطاب الفقه واللغة، وأشهرهم أبو القاسم بن قديد، وتلميذه الكندي الذي ترك كتاباً عظيماً في تاريخ ولاة مصر ومَن تولى قضاءها، وأبو القاسم بن طباطبا الحسني الشاعر.

فلما أن كان عصر الأمير محمد بن طغج الإخشيدي، أصبحت مجالس الدراسة والحلقات الأدبية الخاصة من تقاليد الحياة الرفيعة، وقد لقيَت العلومُ والأدب؛ بفضل هذا الأمير وولده أنوجور ووزيره كافـور، وكثير من أمراء الدولة كلَّ حماية ورعاية، وكانت حلقة الشاعر أبي الطيب المتنبي ـ الذي وفد على مصر عام ٣٤٦هـ ـ ٩٥٢م،

على أثر مفارقته لبلاط سيف الدولة في حلب ـ من أهم حلقات الشعر والأدب واللغة في ذلك العهد.

ثم قامت حلقاتٌ للمسجد الأموي بدمشق، وفي مسجد البصرة والكوفة وبغداد، وفي مسجد القيروان، وفي مسجد القرويين، وفي غيرها من المساجد الكبرى، ولكن هذه الحلقات لم يُكتَب لها الدوام والاستمرار؛ ما عدا حلقات مسجد القرويين بفاس بالمغرب.

وأما أول ظهور للمدارس وإنشاء العمارات التي تخصص لتدريس العلوم الإسلامية ودراستها ولتلقي العلوم عن المشايخ فيها، وخروج طلبة العلوم من الحلق العلمية التي كانت تعقد في المساجد إليها، فيوقف على الطلبة وعلى شيوخهم المال والعقارات، وتجرى عليهم الجرايات، وتوفر لهم أسباب التعليم، فبالرجوع إلى المصادر المخصصة في الموضوع نجد أن أول ظهور لها كان في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين قبل إنشاء الأزهر بنحو قرن ونصف وقبل إنشاء المدارس النظامية بنحو قرنين ونصف. وفي ما يلي سرد لأسماء بعض المدارس التي أنشئت قبل المدارس النظامية حسب التسلسل الزمني وعلى سبيل المثال لا الحصر.

١- مدرسة الإمام أبي حفص الفقيه البخاري (١٥٠هـ -٢١٧هـ): وهذه المدرسة- فيما نعلم-أول مدرسة أسست، ويبدو من نسبتها إلى مؤسسها أنها قد أسست في أثناء حياته. وأبو حفص من الفقهاء الذين تزعموا الحركة الفكرية في مدينة بخارى، ثم نشطت حركة إنشاء المدارس في الشرق الإسلامي بعد هذا التاريخ.

ومن الجدير بالذكر أن المدارس كانت قد ظهرت في دمشق قبل ظهورها في بغداد، فقد تم إنشاء أول مدرسة فيها عام (٣٩١هـ) وهي المدرسة الصادرية، وتبعها إنشاء المدرسة الرشائية في حدود الأربع مائة للهجرة أنشئها مقرئ دمشق رشا بن نضيف.

٢- مدرسة ابن حبان: في حوالي سنة (٣٠٥ هـ) شيد أبو حاتم بن حبان البستي مدرسة بمدينة «بست» بنيسابور، وجعل فيها خزانة كتب وبيتا للطلبة.

٣- مدرسة أبي الوليد حسان بن أحمد النيسابوري: أنشئها قبل سنة (٣٤٩ هـ)

٤- الأزهر: قد أسس سنة (٣٥٩ هـ)

٥- مدرسة محمد بن عبدالله بن حماد (٣٨٨ هـ): وصفه السبكي بأنه كان ملازما لمسجده ومدرسته إلى أن خرج من دار الدنيا.

٦-المدرسة الصادرية: أنشئها الأمير شجاع الدولة الصادر بن عبدالله سنة (٣٩١هـ)في مدينة دمشق.

٧- دار الحكمة في مصر: أنشئها الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة (٣٩٥ هـ).

٨-المدرسة البيهقية: بنيسابور، أنشئت قبل أن يولد نظام الملك وقد ولد سنة (٤٠٨ هـ).

٩-مدرسة أبي بكر البستي: بناها بنسابور ووقف جملة من ماله عليها.

١٠- مدرسة الإمام أبي حنيفة: أسسها أبو سعد بن المستوفي بجوار مشهد أبي حنيفة، وتم افتتاحها قبل افتتاح المدرسة النظامية بخمسة أشهر.

وكان إنشاء الأزهر عام ٣٦١هـ ـ ٩٧١م، وقيام الحلقات العلمية فيه منذ إنشائه حتى اليوم، وطيلة أكثر من ألف عام معجزة الثقافة الإسلامية التليدة الخالدة، لأن الأزهر اليوم هو أم الجامعات الإسلامية، وهو الذي يمدّها بالتوجيه وبالأساتذة، وبالخطط العلمية المدروسة.

وقامت بعد ذلك الجامعات النظامية التي أسّسها الوزير نظام الملك وزير السلطان السلجوقي آلب أرسلان، وذلك عام ٤٥٧هـ ـ ١٠٦٤م، وكان نظام الملك

قد أنشأ هذه الجامعات لتدعيم المذهب الشافعي والعقيدة السنية والاتجاه الأشعري.

ثم الجامعة المستنصرية في بغداد، وكانت تُدرَّس فيها المذاهب الأربعة، وكان فيها كلية لتدريس الطبّ، وأخرى لتدريس الرياضيات واللغات، كما قامت جامعات إسلامية أخرى في نيسابور ودمشق وبيت المقدس والإسكندرية والقاهرة، وغيرها من عواصم العالم الإسلامي، ولكنها اندثرت ولم يبق منها شيء.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول
المدارس النظامية

وفيه:

١ـ نشأة المدارس النظامية.

٢ـ أهم أهداف المدارس النظامية.

٣ـ وسائل نظام الملك في تحقيق هذه الأهداف.

٤ـ أثر المدارس النظامية في العالم الإسلامي.

الفصل الأول
المدارس النظامية

(١)
نشأة المدارس النظامية

جاء نظام الملك فوجد أمامه هذه النماذج العديدة من المدارس، ورأى الفاطميين قد سبقوه إلى تشييد الأزهر، والاعتماد عليه في دعوتهم ودراسة مذهبهم، فكانت هذه مصادر إيحاء وتحفيز للقيام بإنشاء مجموعة من المدارس، وليس مدرسة واحدة لتشارك المجاهدين في حربهم ضد المبتدعين بنفس السلاح. لقد تسربت الباطنية إلى سوريا وفارس والعراق، وأخذت بالانتشار بسبب إغراء الدعاة وإثارتهم، فطاف ناصر خسرو ومن بعده حسن الصباح يدعوان للمذهب الباطني الإسماعيلي الشيعي الرافضي، وقام إبراهيم ينال ثم البساسيري في الموصل وبغداد بثورتين عنيفتين كادتا تقضيان على الخلفاء والسلاجقة جميعاً، وكان لدار الحكمة والأزهر اللذين أسسهما الفاطميون في القرن الرابع الهجري بالقاهرة الأثر الأكبر في بث مبادئ التشيع الإسماعيلي ونشر الحكم الفاطمي، ولم يكن إيقاف حركة الباطنية هذه ـ فضلاً عن القضاء عليها ـ بالأمر الهيّن؛ فجذورها قد تغلغلت في جسم البلد الإسلامي الكبير، وخاصة إقليم خراسان فإنه كان موطن المغذّين لها بالآراء الفلسفية والبراهين المنطقية ، وقد اتخذ هؤلاء وسيلتهم في الإقناع والحجة طريق الحوار والمناقشة.

لقد بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المد الشيعي الإمامي والإسماعيلي الباطني عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام ٤٥٥هـ، فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح إلاّ إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية.

ذلك أن الشيعة ـ إمامية كانوا أم إسماعيلية ـ نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة، وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلاّ نشاط سني مماثل يتصدى له بالحجة والبرهان، خاصة أن السلاجقة ورثوا في فارس والعراق نفوذ بني بويه الشيعيين، وهؤلاء لم يألوا جهداً في تشجيع الإمامية على نشر فكرهم، كما غضّوا الطرف عن نشاط دعاة الإسماعيلية في فارس والعراق، وترتب على ذلك كله تزايد نفوذ الشيعة فيهما، خاصة بعد أن لجأ الشيعة إلى إنشاء مؤسسات تعليمية تتولى الترويج لعقائدهم، وتعمل على نشرها.

فقد أنشأ أبو علي بن سِوار الكاتب أحد رجال عضد الدولة (ت ٣٧٢ هـ) دار كتب في مدينة البصرة وأخرى في مدينة رام هرمز، وجعل فيها إجراء على من قصدهما، ولزم القراءة والنسخ، وكان في الأولى منهما شيخ يُدْرَس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة، كما أسس أبو نصر سابور بن أزد شير وزير بهاء الدولة (ت ٤١٦ هـ) داراً للعلم في الكرخ في عام (٣٨٣ هـ)، ووقف فيها كتبًا كثيرة. ذكر ابن الأثير أنها بلغت عشرة آلاف وأربعمائة مجلد في أصناف العلوم، وأُسند النظر في أمرها ورعايتها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة، وبعد وفاة سابور آلت مراعاة هذه الدار إلى الشريف الرضي نقيب الطالبيين، كذلك اتخذ الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) الشاعر

الإمامي المشهور دارًا أسماها دار العلم، وفتحها لطلاب العلم، وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه.

ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة، فكانت دار الكتب تُسمّى قديماً «خزانة الحكمة»، وهي خزانة كتب ليس غير، أما المؤسسات الجديدة فتسمى «دور العلم»، وخزانة الكتب جزء منها. وهذا يشير إلى أن هذه الدور الجديدة كانت لها وظيفة تعليمية أيضاً.

وإلى جانب دور العلم هذه كان كثير من أئمة الشيعة الإمامية يقومون بالدعوة إلى مذهبهم ونشر عقائدهم في بيوتهم الخاصة، أو في مشاهدهم، وأعني بها المساجد التي دُفن فيها أئمتهم ـ على حد قولهم، لأن بعضها لا يثبت ـ والتي عُرفت عندهم بالعتبات المقدسة: فقد كان الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان، شيخ الإمامية المتوفى في عام ٤١٣ هـ يعقد مجلس نظر بدار يحضره جميع العلماء، وكانت له منزلة عند أمراء الأطراف يميلهم إلى مذهبه، وأما أبو جعفر الطوسي محمد بن الحسن فقيه الإمامية (ت ٤٦٠ هـ)، فقد فر إلى النجف بعد أن هوجمت داره في بغداد، ونُهبت محتوياتها في عام ٤٤٨ هـ في حملة الضغط التي تعرض لها الشيعة في بغداد عقب دخول السلاجقة إليها، وتمكن الطوسي في مقره الجديد من مواصلة نشاطه العلمي والتعليمي، فألف مجموعة من الكتب في الفقه والحديث على مذهب الإمامية احتلت مكاناً بارزاً في الدراسات الشيعية الإمامية، كالتهذيب والاستبصار، وهما من الكتب الأربعة المعوَّل عليها عندهم، والتي تحفل بالروايات الضعيفة والموضوعة والتي لا وزن لها في الميزان العلمي الصحيح، كما أملى الطوسي ـ في مشهد النجف ـ على طلبته كثيراً من الدروس جمعها في كتاب سماه الأمالي.

هذه بعض الجهود التي قام بها الإمامية للترويج لمذهبهم والدعاية له.

أما الإسماعيلية، فكانوا أساتذة هذا الميدان ولهم القدم الراسخة فيه؛ إذ حازوا قصب السبق في إنشاء المؤسسات التعليمية، وتوجيهها وجهة مذهبية. وبدأ الفاطميون نشاطهم في هذا المجال منذ قيام دولتهم في الشمال الإفريقي، وكان عهدهم الذهبي بإنشاء الجامع الأزهر عام (٣٥٩هـ)، وجعلوا منه مؤسسة تعليمية تُعنى بنشر مذهبهم في عام (٣٧٨هـ) عندما سأل الوزير يعقوب بن كلس الخليفة العزيز في صلة رزق جماعة من الفقهاء، فأطلق لهم ما يكفي كل واحد منهم، وأمر لهم بشراء دار وبنائها، فبُنيت بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع، وتحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تُصلّى العصر، وكان لهم من مال الوزير صلة في كل سنة.

ثم أنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم «دار الحكمة» للغرض ذاته في عام ٣٩٥هـ، وحُملت الكتب إليها من خزائن القصور، ومن خزائن مقر الدولة الفاطمية، وأجرى الأرزاق على من رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر.

هذا بالإضافة إلى البرامج التعليمية التي كانت تُعدّ بعناية خاصة في عاصمة الخلافة الفاطمية لإعداد الدعاة، وتثقيفهم ثقافة مذهبية واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثره في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الشرق الإسلامي نتيجة لهذه الجهود المنظمة المستمرة في نشر هذه الدعوة.

لذلك كله فكر نظام الملك في أن يقاوم النفوذ الشيعي بنفس الأسلوب الذي ينتشر به، ومعنى ذلك أنه رأى أن يقرن المقاومة السياسية للشيعة بمقاومة فكرية أيضاً، وتربية الأمة على كتاب الله وسنة رسوله، وعقيدة أهل السنة والجماعة المستمدة من

الوحي الإلهي. ومن هنا كان تفكيره في إنشاء المدارس النظامية التي نُسبت إليه؛ لأنه هو الذي جد في إنشائها وخطط لها، وأوقف عليها الأوقاف الواسعة، واختار لها الأكفاء من الأساتذة، فكان من الطبيعي أن تُنسب إليه من دون السلاجقة.

لقد كان نظام الملك شافعياً سنياً حريصاً على الإسلام الصحيح، وقد عاصرته آراء وأفكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الإسلامي كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل. وكان نظام الملك يرمي بدرجة كبيرة إلى توجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة الدولة، وتبعث على الاستقرار والسكينة والأمن، لذا كان هَمُّ نظام الملك التأكيد في مواضع الدراسة على إفهام الناس عامة ومنتسبي النظامية خاصة أصول الدين الصحيحة، ولما كان نظام الملك شافعياً، كان يرى أن يُدرَّس الفقه والأصول المستمدة من أفكار وآراء الشافعية، وكان من شروط النظامية أن يكون المدرس من الشافعية أصلاً وفرعاً.

(٢)
أهم أهداف المدارس النظامية

ـ نشر العقيدة السنية ليواجه تحديات العقيدة الشيعية ويعمل على تقليص نفوذها.

ـ إيجاد طائفة من المعلمين السنيين المؤهلين لتدريس المذهب السني ونشره في الأقاليم المختلفة.

ـ إيجاد طائفة من الموظفين السنيين ليشاركوا في تسيير مؤسسات الدولة وإدارة دواوينها، وخاصة في مجال القضاء والإدارة.

(٣)
وسائل نظام الملك في تحقيق هذه الأهداف

أبدى نظام الملك اهتماماً كبيراً بوسائل تحقيق أهداف المدارس النظامية؛ فاختار الموقع الجغرافي الذي يمكن أن تثمر فيه والمدرسين الممتازين، وأظهر ذكاء ملحوظاً في تحديد المنهج العلمي الذي ستسير عليه، ثم بذل أقصى جهوده لتوفير الإمكانات المادية التي تعين هذه المدارس على العطاء الفكري السخي.

فمن ناحية الأماكن التي أنشئت النظاميات فيها يقول السبكي عن نظام الملك: إنه بنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصفهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان ومدرسة بالموصل. هذه إذن هي أمهات المدارس النظامية التي أُنشئت في المشرق الإسلامي، ويتضح من توزيعها الجغرافي أن معظمها أُنشئ إما في بعض المدن التي تحتل مركز القيادة والتوجيه الفكري، كبغداد وأصفهان، حيث كانت الأولى عاصمة للخلافة العباسية السنية، ويتركز فيها عدد كبير من المفكرين السنيين أيضاً. والثانية كانت عاصمة للسلطنة السلجوقية في عهد ألب أرسلان وملك شاه (عصر نظام الملك) وإما في بعض المناطق التي كانت مركزاً لتجمع شيعي في تلك الفترة كالبصرة ونيسابور، وطبرستان، وخوزستان، والجزيرة الفراتية. إن هذا التوزيع الجغرافي يشير بوضوح إلى أن وضع المدارس النظامية في الأماكن السابقة لم يأت اعتباطاً، وإنما كان أمراً مقصوداً ومدروساً حتى تقوم بدورها في محاربة الفكر الشيعي في هذه المناطق، وتفتح الطريق أمام غلبة المذهب السني.

(٤)
أثر المدارس النظامية في العالم الإسلامي

وفق الله تعالى النظام توفيقاً قلّ نظيره في التاريخ السياسي والعلمي والديني، فقد عاشت مدارسه أمداً طويلاً، وعلى الخصوص نظامية بغداد التي طاولت الزمن زهاء أربعة قرون؛ إذ كان آخر من عرفنا ممن درس فيها صاحب القاموس الفيروز آبادي المتوفي ٨١٧هـ ثم زالت في نهاية القرن التاسع الهجري، وكانت قد أدت رسالتها من تخريج العلماء على المذهب السني الشافعي وزودت الجهاز الحكومي بالموظفين ردحاً من الزمن، وخاصة دوائر القضاء والحسبة والإفتاء، وهي أهم وظائف الدولة في ذلك العصر، وانتشر هؤلاء في العالم الإسلامي حتى اخترقوا حدود الباطنية في مصر، وبلغوا الشمال الإفريقي، ودعموا الوجود السني بها.

لقد تخرج في هذه المدارس جيل تحقق على يديه معظم الأهداف التي رسمها نظام الملك، فوجدنا كثيراً من الذين تخرّجوا فيها يرحلون إلى أقاليم أخرى ليقوموا بتدريس الفقه الشافعي والحديث الشريف، وينشروا عقيدة أهل السنة في الأمصار التي انتقلوا إليها أو يتولوا مجالس القضاء والفتيا، أو يتولوا بعض الوظائف الإدارية المهمة في دواوين الدولة، وينقل السبكي عن أبي إسحاق الشيرازي ـ أول مدرس بنظامية بغداد ـ قوله: «خرجتُ إلى خراسان فما بلغت بلدة ولا قرية إلاّ وكان قاضيها أو مفتيها أو خطيبها تلميذي أو من أصحابي».

وقد أسهمتْ هذه المدارس في إعادة دور منهج السنة في حياة الأمة بقوة.

وكان من أبرز آثارها أيضاً تقلُّص نفوذ الفكر الشيعي خاصة بعد أن خرجت المؤلفات المناهضة له من هذه المدارس، وكان الإمام الغزالي على قمة المفكرين

الذين شنوا حرباً شعواء على الشيعة، وخاصة الباطنية الإسماعيلية؛ فقد ألف كتباً عدة، أشهرها فضائح الباطنية الذي كُلّف بتأليفه عام (٤٨٧ هـ) من قبل الخليفة المستظهر.

وقد صارت النظاميات مدعاة لبناء المدارس ومثاراً للتنافس فيه بقدر ما أصبحت نموذجاً يحتذيه مؤسسو المعاهد منذ بداية تشييدها إلى ما بعد ذلك بعصور طويلة.

وقد مهدت المدارس النظامية بتراثها ورجالها وعلمائها السبيل ويسّرته أمام نور الدين زنكي والأيوبيين كي يكملوا المسيرة التي من أجلها أُنشئت النظاميات، وتتمثل في العمل على سيادة الإسلام الصحيح، خاصة في المناطق التي كانت موطناً لنفوذ الشيعة، في تلك المرحلة كالشام ومصر وغيرها.

لقد كانت المدارس من خير ما اهتدى إليه العقل البشري للتفرغ للعلم وفق معطيات ذلك العصر، وكانت «النظاميات» من أفضل الوسائل لنشره وتعميمه وتحقيق الأهداف التي رسمها نظام الملك من سيادة الكتاب والسنة وعقيدة أهل السنة والجماعة على الدولة والأمة الإسلامية ودحر المد الشيعي الباطني الرافضي الذي كانت الدولة الفاطمية بمصر تدعمه.

اقتبسنا هذا الفصل من كتاب «دولة السلاجقة» لعلي محمد الصلابي (٢٩٩-٣١٥).

* * *

الفصل الثاني
الأزهر الشريف

وفيه:

١ـ الأزهر على عهد الدولة الفاطمية.

٢ـ الأزهر في عهد الدولة الأيوبية.

٣ـ الأزهر في عهد المماليك.

٤ ـ بدء انحطاط الحركة العلمية وتقهقرها في العالم الإسلامي.

٥ ـ الأزهر في العهد العثماني.

٦ ـ ما تميز به العصر العثماني.

٧ ـ نظام الدراسة في الأزهر قبل تنظيمه.

٨ ـ مراحل التعليم في الأزهر قبل تنظيمه.

٩ ـ الإنهاض بمصر وروّاد نهضة الأزهر.

١٠ ـ الحاجة إلى إصلاح الأزهر والدعوات إلى إصلاحه، وبيان محاولة ذلك على وجه الإجمال.

١١ ـ دور الشيخ محمد عبده في إصلاح الأزهر، وهدفه من هذا الإصلاح.

١٢ ـ بيان الحاجة إلى تنظيم الأزهر، ووضع القوانين المنظمة له، وإلى إصلاحه وتجديده على وجه التفصيل.

١٣ ـ تنظيم الأزهر وإصلاحه.

١٤ ـ أهم محاولة لإصلاح الأزهر ولتعديل قوانينه.

١٥ ـ الدراسة في الأزهر الحديث.

الفصل الثاني
الأزهر الشريف

(١)
الأزهر على عهد الدولة الفاطمية

قد بُدئ في بناء الأزهر في ٢٤ جمادى الأولى عام ٣٥٩هـ أبريل ٩٧٠م.

وافتتح للصلاة في يوم الجمعة ٧ رمضان ٣٦١هـ ـ ٩٧٢م.

وبدأ نظام الحلقات العلمية فيه من عام ٣٦٥هـ ـ ٩٧٦م.

وصار جامعة إسلامية كبيرة من عام ٣٧٨هـ ـ ٩٨٨م.

والفضل في ذلك يرجع إلى الخليفة الفاطميّ الذي احتلّ مصر المعز لدين الله، وإلى قائده جوهر الصقلي، ثم إلى أسرة القاضي أبو حنيفة النعمان الشيعي، ثم إلى الوزير يعقوب بن كلس.

وكان المسجد منذ نشأته يسمى جامع القاهرة باسم العاصمة الجديدة، ثم قرن هذا الاسم باسم الجامع الأزهر، واستمر الاسم الأول حتى أوائل القرن التاسع، ثم تقلّص هذا الاسم شيئاً فشيئاً، وغلب اسم الجامع الأزهر أو جامع الأزهر.

وأقام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٥م، جامعة جديدة سمّاها «دار الحكمة» أو «دار العلم» استمرّت مَدى حينٍ تُنافِسُ الأزهر،

لكنّها لم تلبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها في الشؤون المذهبية أن اضطربت أحوالها، وضعف نفوذها العلمي.

وكان دار الحكمة يُدرَّس فيها علوم القرآن، واللغة، والفلك، والطبّ، والرياضيات، والتنجيم، وغيرها، واجتذبَت الجامعةُ الجديدة أعلام المشرق، ولبثَت تُنافسُ الأزهر مدى قرنٍ من الزمن حتى أُغلقت.

وقد كان للأزهر نشاط ضخم في الحياة العقلية والعلمية في العصر الفاطمي حتى نهاية عام ٥٦٧هـ ـ ١١٧١م.

ولقد جاءت الدولة الفاطمية إلى مصر مع نفوذها السياسي بحركة علميّة قويّة، فَقَدَّمَتْ حركة العلم، والأدب، والفن، في مصر والشام خطوات، حتى لا يُعدّ شيئاً بجانبها ما كان في العهد الطولوني والإخشيدي، ويصحّ أن توازن بما كان في العراق، ولا سيما العلوم العقلية والفلسفية، فقد ازدهرت في مصر، وقطعت شوطاً كبيراً، وذلك بفضل الأزهر، ودار العلم، وحلقاتهما العلمية، عُنيت الدولة بدُورِ الكتب، ونشر العلم، وتشجيع العلماء، فظهر الكثير من المؤرّخين، والفلاسفة، والعلماء، والرياضيين، واللغويين، والنحويين، والأدباء.

وقد كانت هذه الحركة العلمية ـ كما هي العادة المستمرّة في الحركات العلمية ـ تقوى بقوّة الدولة، وباستتباب الأمن فيها، وتضعُفُ بضعفها وباضطراب أمرها، وقلّة مواردها، وضعف رعايتها للمدارس والقائمين عليها.

وقد أصيبت الحركة العلمية في مصر بكثير من الاضطراب، والضعف في أواسط القرن الخامس الهجري، منذ اضطراب شؤون الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر بالله، ونُكِبت مصر بالشّدّة، وعانت من القحط والوباء أعواماً طويلة (٤٤٦هـ ـ ٤٦٤هـ)،

وشغل المجتمع المصري حيناً بما توالى عليه من الشدائد والمحن، وشُغِل الخلفاء ورجال الدولة بالتنازع على السلطان، وتدبير الانقلابات السياسية العنيفة عن تعهّد الحركة العلمية، قتّرت الدولة على معاهد التعليم لنُضوبِ مواردها، وبدّدت خزائنَ الكتبِ أثناءَ الفتنة، وكانت من أنفَسِ وأعظمِ ما عرفَه العالم الإسلامي.

وكان لهذا الاضطراب أثره في الأزهر ودار الحكمة، فركدَت حركةُ الدرس والتحصيل تبعاً لركودِ الحياة العامة، واضطراب الحياة الخاصة.

وفي عصر أمير الجيوش بدر الجمالي المتغَلّب على الدولة ٤٦٥-٤٨٧ هـ، وولده الأفضل شاهنشاه ٤٨٧-٥١٥هـ، عاد النظام والأمن والرخاء إلى البلاد، وانتظمت الحياة العامة، واستعادت الحركةُ العلمية نشاطَها بما أسبغ عليها من الرعاية، وبما بذل للإنفاق على المعاهد العلمية من الأموال والأرزاق.

كان التدريس في الأزهر في أول نشأته على عهد الفاطميين يجري على مذهب الشيعة، وكان في أول الأمر من المحظور أن يُدرّس غير ذلك، وقد قبض في سنة ٣٨١هـ ـ ٩٩٢م، على رجل عنده كتاب الموطأ للإمام مالك، فحُبِسَ وجُلِد.

وفي أواخر الدولة الفاطمية كادت تكون الدراسة حرّة في الأزهر، ولكن لم يُعرَف بالضبط قائمة الكتب التي كانت تدرّس في ذلك العصر.

وممن تولى التدريس في الأزهر في أوائل العصر الفاطمي، الأساتذة بنو النعمان قضاة مصر، فكان القاضي أبو الحسن علي بن النعمان أول من درّس بالأزهر، وتوفي سنة ٣٧٤هـ ـ ٩٨٥م.

ودرَّس بالأزهر أخوه القاضي محمد بن النعمان، وتوفي سنة ٣٨٩هـ ـ ٩٩٨م، ثم ولده الحسن بن النعمان قاضي الحاكم بأمر الله، والمؤرّخ الحسن بن زولاق المتوفى

سنة ٣٧٨هـ ـ ٩٨٨م، والمسبحي المتوفى سنة ٤٢٠هـ ـ ١٠٢٩م، وكان من أعلام الفكر والأدب والفلك والتاريخ، وأبو عبد الله القضاعي، وهو محمد بن سلامة ابن جعفر المتوفى سنة ٤٥٤هـ ـ ١٠٦٢م، والحوفي النحوي، وهو أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد المتوفى سنة ٤٣٠هـ ـ ١٠٣٨م، وأبو العباس أحمد بن هاشم المصري المتوفى سنة ٤٥٤هـ ـ ١٠٦٢م، وابن بابشاذ النحوي المتوفى سنة ٤٦٩هـ ـ ١٠٧٦م، وأبو عبد الله محمد بن بركات النحوي تلميذ القضاعي المتوفى سنة ٥٣٠هـ ـ ١١٣٥م.

وقد اشتهر من أولئك الأئمة من ألّف الكتب الكبيرة، والمراجع العظيمة في العلوم الدينية، والعربية التي كانت تُدرّس في الأزهر: كالعلامة أبي الحسن علي بن إبراهيم الحوفي إمام العربية والنحو، وصاحب كتاب «إعراب القرآن»، وابن بابشاذ النحوي صاحب كتاب «المقدمة» و«شرح الجمل»، وابن القطاع اللغوي صاحب كتاب «الأفعال»، وأبي محمد عبد الله بن بري المصري إمام اللغة في عصره، وغيرهم ممن انتهت إليهم الرئاسة في هذا العصر، واعتبرت مؤلّفاتهم مراجع.

وقد وفد إلى مصر عقب انتهاء الدولة الفاطمية أبو القاسم الرعيني الشاطبي الضرير، المقرئ الشهير المتوفى سنة ٥٩٠هـ ـ ١١٩٣م، وهو صاحب «حرز الأماني ووجه التهاني» الذي ما زال إلى اليوم من أهم متون التجويد والقراءات.

ويظهر من عناية الخلفاء الفاطميين بالعلوم الرياضية والفلكية والجغرافية والطبية؛ أنَّ تلك العلوم لا بدّ أن تكون قد دُرِّست في الأزهر في زمانهم، كما كانت تُدرَّس في دار الحكمة التي أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ ـ ١٠٠٤م.

وقد كان الأزهر في عهد الفاطميين مَوئل الثقافة الدينية، وكان له الأثر الواضح في تنمية الحياة العقلية، والفكرية، وتخريج علماء الدِّين، واللغة، ولكنه لم يكن له

أثر في توجيه الحياة السياسية في ذلك العصر، مثل ما ظهر له ظهوراً جليّاً في الدولة المصرية بعد ذلك.

كان نظام الحلقات العلمية وقت إنشاء الجامع الأزهر؛ هو نظام الدراسة الممتازة في مصر، وفي معظم الأقطار الإسلامية الأخرى، وكان قوام الحياة الجامعية، والعلمية في العالم الإسلامي، ولم يكن ثمة نظام آخر في الساحة العلمية في عصر لم تكن قد عُرِفَت فيه المدارس بعد.

هكذا بدأت الدراسة في الأزهر في حلقات علمية وأدبية، واستمرت كذلك على مرّ العصور.

كان الأستاذ يجلس ليدرّس، ويلقي الدرس في حلقة من تلاميذه، والمستمعين إليه، وتنظم الحلقات في الأزمنة والأمكنة المتفق عليها بين الأساتذة، والطلاب.

ويجلس أستاذ المادة في المكان المخصّص لذلك من أروقة الجامع، وأبهائه، وأمامه الطلبة والمستمعون يُصغون إليه، ويناقشونه.

❊ ❊ ❊

(٢)
الأزهر في عهد الدولة الأيوبية

قـامت الدولةُ الأيوبيـة في مصـر عام ٥٦٧هـ ـ ١١٧١م، على يد مؤسِّسها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد دعم كيان دولته، ومحا من مصر المذهب الفاطمي، وأحلَّ محلَّه المذهب السني، وعُني بنشر العلم وتشجيع العلماء، وبنى المدارس والخوانيق، وأجرى الأرزاق على العلماء، والصلحاء، وكان صلاح الدِّين مع ذلك على جانبٍ كبير من الدِّين والورَع والزهد والعلم.

وفي عهد الدولة الأيوبية أُنشئَت عدّة مدارس تُنافِسُ الأزهرَ في رسالته العلمية.

فقد بنى صلاحُ الدِّين ثلاثَ مدارس للشافعية، ومدرسةً للحنفية، وأخرى للمالكية؛ وابتنى خلفاؤه من بعده المدارس المتنوعة؛ التي خُصِّصت كلّ واحدةٍ منها بتدريس علوم خاصة. ويُحصي المقريزي المدارسَ التي بُنيَت في القاهرة وحدها بثماني عشرة مدرسة. وقد بُنيت في القاهرة والفسطاط معاً نحوُ خمس وعشرين مدرسة.

ومنها المدرسة الفاضلية، بناها القاضي الفاضل عام ٥٨٠هـ ـ ١١٨٤م، وكان في مكتبتها مئة ألف مجلد.

كانت كلّ مدرسة من هذه المدارس تتخصص في دراسةٍ بعينها، وكان الغرضُ من إنشاء هذه المدارس منافسة الأزهر، وصرف الطلاب عنه للقضاء على المعالم الفاطمية الرافضية.

وقد كان لقيام هذه المدارس، وكثرتها خلال القرنين السابع والثامن، أي حتى ما بعد عصر الأيوبين؛ أثرٌ كبير في سَيْرِ الدراسة في الأزهر، فقد تنافست هذه

المدارس منافسةً شديدة، وجذَبَت إليها أعلام الأساتذة، وتحوَّلَت الحركة والنشاط العلمي إلى تلك المدارس، وقضى الأزهر في هذه المدّة عصراً من الركود الطويل، ولكن لم تنقطع الدراسة فيه.

وبالرغم من ذلك ترى الأزهر لذلك العهدِ جامعةً حرّة تُدرَّسُ فيها العلوم العقلية، والعلوم المدنية، إلى جانب العلوم الدينية بصورة منظمة، فمثلاً نرى بين أساتذة الأزهر في هذه الفترة العلامة عبد اللطيف البغدادي يدرّسُ الطبّ، والفلسفة، والمنطق مدى حين، بيد أنه لا ريب أن صفة الأزهر الدينية كانت وما زالت تغلِبُ على كلّ صفة أخرى، وأن العلوم الدينية كانت وما زالت خلال العصور تحتلّ المقام الأول.

وهذه الخاصية لم ينفرد بها الأزهر في العصور الوسطى، فإنَّ الحركات العلمية والعقلية كانت خلال هذه العصور ترتبط في جميع الأُمم بالدِّين أشدّ ارتباط.

وكان من نتائج هذا التخصّص تصادمُ الأفكار بين أصحاب المذاهب المتعدّدة، وظهور التعصّب للمذاهب، وقد يكون إلى حدِّ المغالاة فيه، فقد ظهر في كلِّ مذهبٍ مَن يُحاول الدفاعَ عن مذهبه، ومهاجمة الآخر بما يملك من أسلحة الهجوم، ومن هنا ورثَتِ هذه المدارسُ بما فيها الأزهر، التعصّب المذهبي الشديد؛ إلى حدِّ الإفتاء بأنَّ الانفراد في الصلاة أفضلُ من الاقتداء بالمخالف، وبأنه لا يصحّ الاقتداء بالمخالف إذا لم تكن صلاته صحيحة على مذهب المأموم، وأفتى بعضُهم بعدم صحّة المناكحة بين أهل السنة والمعتزلة، مع أنّ السلف كان يقتدي كلٌّ منهم بالآخر مع المخالفة في المذهب، أو الاجتهاد الفقهي بدون أي تحرّج من ذلك، وبدون أن يخطر ببال أحدٍ منهم هل صلاة الإمام صحيحة حسب مذهبه، أو اجتهاده أم لا؟

❊ ❊ ❊

(٣)
الأزهر في عهد المماليك

لما تولّى المماليك حكم مصر، وكان ذلك عام ٦٥٧هـ ـ ١٢٥٨م، وانتهى أمرهم عام ٩٢٣هـ ـ ١٥١٧م، حاولوا أن يعيدوا إلى الأزهر أُبّهتَه، وسابقَ عهدِه الزاهر الذي كان عليه في عهد الفاطميين.

فقد اعتنى الظاهر بيبرس بأمر الأزهر، فأعاد إليه حياته العلمية والدينية، فأعاد إليه خطبة الجمعة سنة ٦٦٥هـ ـ ١٢٦٦م، بعد ما كانت تعطّلت عنه قرابة قرن كامل. وشجّع العلم والعلماء فيه، وحذا حذوه كثير من الأمراء، ووقفوا عليه الأوقاف، وأدرّوا عليه الأموال، وصار الجامع بفضل عنايتهم به عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقّيه، والاشتغال بأنواع العلوم: من الفقه، والتفسير، والحديث، والنحو، ومجالس الوعظ، وحِلَقِ الذِّكر.

وصار أربابُ الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البِرّ من الذّهبِ والفضّةِ؛ إعانةً للمجاورين على طلبِ العلم، وعلى عبادةِ الله تعالى. وصارَ تُحمَلُ إليه أنواعُ الأطعمة والخبز والحلويات، لا سيما في المواسم.

فقد أسهم الأزهر في هذا العصر بنشاط كبير في شتّى نواحي الحياة والعلم والمعرفة، ونبغ في هذا العهد مجموعةٌ كبيرة من العلماء في شتّى أنواع العلوم والفنون، وأسهموا إسهاماً كبيراً في إثراء المكتبة الإسلامية التي كانت قد انتقصت منها غارةُ الصليبيين على الأندلس، وهجمةُ التتار على شرقِ العالم الإسلامي، وقضائهم على بغداد، وعلى ما فيها من العلم، والعلماء، وكتب التراث.

كما هاجر إلى مصر في هذا العهد كثير من العلماء الذين جدّدوا شبابَ النهضة العلمية في العالم الإسلامي.

وقد كان من العلماء مَن كان يَعرِفُ كثيراً من العلوم العقلية والطبية والرياضيات، بالإضافة إلى العلوم الدّينية والعربية.

كان الأزهر في هذه الحقبة يحتفظُ بمكانةٍ خاصة. يعاونه في ذلك اتّساع حلقاته وأروِقَتِه، وتنوّع دراسته، وهيبته القديمة، وما يُلاقي الطلابُ فيه من أسباب التيسير في الدراسة والإقامة.

وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع ـ أي: مذ عَفَتْ معاهدُ بغداد وقرطبة ـ كعبةَ الأساتذةِ والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامي، وتحوّلَ إلى أعظم مركزٍ للدراسات الإسلامية العامة.

ومنذ القرن الثامن الهجري أخذ يتبوّأُ الأزهر في مصر، وفي العالم الإسلاميّ؛ نوعاً من الزعامة العلمية والفكرية والثقافية.

وفي أنباء هذا القرن ما يدلُّ على أن الأزهر كان يتمتّع في ظلِّ دولةِ سلاطين المماليك برعاية خاصة، وكان الأكابر من علمائه يتمتّعون بالجاه والنفوذ، ويشغلون وظائف القضاء العليا، ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد، كان هذا النفوذ يصل أحياناً إلى التأثير في سياسة الدولة العليا، وأحياناً في مصائر العرش والسلطان.

وربما كانت هذه الفترة في الواقع هي عصر الأزهر الذهبيّ من حيث الإنتاج العلمي الممتاز، ومن حيث تَبوُّئِه لمركز الزعامة والنفوذ.

واتجهت العنايةُ الكبرى في عهد المماليك للعلوم الدينية بوجه خاصّ، وتسابقت همَمُ الفحولِ في إتقان آلاتها من نحو، وصرف، وبلاغة. فنبغ في مصر أئمة

أعلام يفتخرُ بهم العالم الإسلامي أجمع: كالإمام عزّ الدّين بن عبد السلام، والإمام السبكي وأبنائه، والشهاب القرافي، وابن هشام، والسراج البلقيني، والإمام السيوطي، والإمام الزيلعي، وأبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي، وتاج الدين التبريزي، والحافظ العراقي، والحافظ ابن حجر العسقلاني، والعيني شارح البخاري، وابن الهمام، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وغيرهم من المصريين، ومن غير المصريين ممّن رحلوا من أقاصي الأرض لتعلُّمِ العلم في الأزهر، أو لنشرِ علومهم في العالم الإسلاميّ من مصر؛ التي كانت مهدَ العلوم الإسلامية، والحضارة العالمية.

وكانت العلوم العقلية من رياضيات، وغيرها تدرَّسُ أيضاً في الأزهر، لكن المشتغلين بها كانوا نزراً من الأساتذة والطلبة.

❊ ❊ ❊

(٤)
بدء انحطاط الحركة العلمية
وتقهقرها في العالم الإسلامي

وفي أواخر القرن التاسع أخذت الحركة العلمية في الأزهر وغيره من المدارس الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي؛ في الضعف والذبول، وكان ذلك تبعاً لضعف الدول الإسلامية، وجهالة القائمين عليها، وكانت دولة سلاطين المماليك في مصر قد شاخت، وأخذت تسير نحو الانهيار بخطىً سريعة.

واضطربت تبعاً لذلك أحوال المعاهد، والمدارس المصرية، وتضاءلت مواردها، وفقدت كثيراً مما كانت تتمتّع به من رعاية السلاطين والأمراء، وأصابها الركود والذبول، ولم يمضِ قليلٌ على ذلك حتى انهارت الدولة المصرية، وسقطت تحت الحكم العثماني سنة ٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م.

* * *

(٥)
الأزهر في العهد العثماني

مما لا يختلف فيه اثنان أن الفتح العثماني لمصر كان قد قضى على تشتّت العالم الإسلامي، وأنهى أمرَ مختلفِ الدويلات والأمارات الضعيفة الموجودة على الساحة الإسلامية، ووحّد معظم العالم الإسلامي تحت راية واحدة، وسلطة موحدة، وجعل من الدولة العثمانية أعظم قوة سياسية، وأكبر قوة عسكرية في العالم، وجعل منها دولة مرهوبة الجانب يُحسب لها ألف حساب وحساب، وعن طريق تلك القوة استطاع العثمانيون أن يقوموا بفتوحات عظيمة في مختلف أصقاع أوربا، وأن يُخضِعوا شعوبها للحكم الإسلامي، وأن يُدخِلوا الملايين منهم في الدِّين الإسلامي.

و هذا أكبر مآثر العثمانيين التي لا ينساها لهم التاريخ، ولا يزال يمجّدهم بها.

لكن هذا الفتح العثماني لمصر كان له من جانب آخر أثر سيئ على الحركة العلمية والعقلية والثقافية؛ التي كان يتزعّمها حينئذ القطر المصري والأزهر على الخصوص.

وذلك أن السلطان سليم قام بعدما استتبّ له الأمر بمصر بأمرين؛ كان لهما أسوأ الأثر في تراجع الحركة العلمية في مصر وفي ذبولها وانكماشها، ولم يخصَّ هذا الأثر السيئ مصر فقط، بل قد سرى إلى العالم الإسلامي أجمع.

وذلك أن السلطان سليم أخذ مئات العلماء من مصر إلى القسطنطينية، وقد ذكر هذا مؤرّخ الفتح العثماني ابن إياس في (بدائع الزهور ٣/ ١١٩ فما بعدها)، وانتزع الكتب من المساجد والمدارس والمكتبات، وأخذها ليودِعَها مكتبات عاصمة الدولة إستانبول.

ثم إن هناك أمراً آخر كان له أكبر الأثر على جمود الحركة العلمية وذبولها وانكماشها، وهو أنّ عناية الدولة العثمانية في عهد قوّتها وازدهارها كانت تتركّز على

السياسة والقوة العسكرية، وأما العلوم الإسلامية والعقلية والفنون والرياضيات فقد كانوا يعتنون بها وبعلمائها اعتناء جيداً، لكن عنايتهم بهذه العلوم لم تكن أصلية ولا جذرية، فلم تكن أصالة العلوم وقوّتها على عهدهم بمستواها التي كانت عليها قبلهم، ولم يكن العلماء على عهدهم بالمستوى الذي كان العلماء عليها قبل عهدهم.

وإذا قارنّا الحركة العلمية، ومستوى العلماء في القرنين الثامن والتاسع، وما أنتجَه هؤلاء العلماء من المؤلّفات العظيمة القويّة الجمّة؛ بالحركة العلمية ومستوى العلماء في القرن العاشر والحادي عشر فما بعدهما، وما أنتجوه من المؤلّفات؛ يظهرُ الفرقُ الجليُّ، والبَونُ الشاسع بينهما.

فمن أواخر القرن التاسع الهجري أخذت الحركة العلمية في مصر والعالم الإسلامي يدبّ إليها الضعف والانكماش، وأخذ ظلّ الازدهار العلمي في الركود والتقلّص، وانصرف الجمهور من العلماء، وطلبة العلوم، عن العلوم العقلية، والفلسفية، والرياضيات، والجغرافية، حتى تُرِكَت هذه العلوم من الأزهر، وبقيت مهجورةً يُنظرُ إليها بعين السّخط، حتى صدر أخيراً فتوى من شيخ الأزهر الشيخ الأنبابي، ومن الشيخ محمد البنا مفتي مصر بجواز تعلّمها وعدم حُرمة تدريسها.

وهكذا تقلّص صرح الحركة الفكرية الإسلامية، وتضاءل شأن العلوم والفنون، وانحط معيار الثقافة، بعد أن كانت مصر موئل الثقافة، ومحطّ رحال العلماء بعد سقوط بغداد على أيدي المغول، وانقضاء البقية الباقية من سلطان المسلمين في الأندلس، وذلك عندما وجد العلماء في سلاطين المماليك ما أَمّلوا، ووجد الإسلام فيهم حماةً يقفون له كما وقف الأيوبين من قبل.

وقد كان ردّهم للمغول في وقعة عين جالوت على يد قطز حدثاً تاريخيّاً، حفظ

الحضارة الإسلامية من معاول التتر، ورفع شأن مصر، وجعلها مهبط الثقافة الإسلامية، والأمينة على التراث الإسلامي.

وقد كان الفضل في ذلك للأزهر، فقد اتّسع صدرُه للواردين من العلماء والطلاب من سائر البلاد، ومكّن لهم من الدراسة الهادئة، والبحث المنظّم، مما أفاد الحضارة الإنسانية بأجزل الفوائد بما أخرجوه من فرائد الكتب في الفقه والحديث والتفسير واللغة وغيرها.

وبالرغم مما أصاب الأزهر في هذه الحقبة المظلمة من تاريخه على عهد العثمانيين، فقد استطاع الأزهر أن يحفظ اللغة العربية، وأن يُبْقِيَ بابه مفتوحاً لطلاب العلوم الإسلامية واللغة العربية، وأن يُخَرِّجَ الآلاف من العلماء وفيهم المئات من كبار العلماء.

ولكنه للأسف لم يستطع أن يُخرّج جيلاً من العلماء في مستوى علماء القرن الثامن والتاسع، وإن كان قد خرج أفراداً لهم مكانتهم العلمية التي قد حفظها لهم التاريخ.

فقد نبغ في هذه الحقبة عدد كبير من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، منهم الفقهاء الشافعية الثلاثة: الخطيب الشربيني، وابن حجر الهيتمي، وشمس الدين الرملي، ومنهم الشهاب الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ ـ ١٦٥٨م، وعبد القادر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣هـ ـ ١٦٨٢م، صاحب «خزانة الأدب»، والصبان المتوفى سنة ١١٧٢هـ ـ ١٧٥٨م، وغيرهم.

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أنه كان من العلماء في عهد ركود الأزهر وجموده مَن يُجيد كثيراً من العلوم العقلية والطبية وغيرها؛ بالإضافة إلى العلوم الإسلامية والعربية، لكنهم كانوا قِلّة قليلة، نذكر منهم الشيخ أحمد عبد المنعم الدمنهوري شيخ الأزهر المتوفى سنة ١١٩٢هـ ـ ١٧٧٨م، فقد جاء في سند إجازته ما مُلخّصه: أنه تلقّى في الأزهر

العلوم التالية، وله تآليف في كثير منها، وهي: الحساب، والميقات، والمنحرفات، وأسباب المرض وعلاماتها، وعلم الإسطرلاب والزيج، والهندسة، والهيئة، وعلم الارتماطيقي، وعلم المزاول، وعلم الأعمال الرصدية، وعلم المواليد الثلاثة، وهي: الحيوان والنبات والمعدن، وعلم استنباط المياه، وعلاج البواسير، وعلم التشريح، وعلاج لسع العقرب، وتاريخ العرب والعجم.

ومما لا ريب فيه أن العلوم الإسلامية والعربية كان لها الشأنُ الأول من العلوم، وما عداها من العلوم لم يكن يُدرَس في الأزهر بالطريقة الرسمية، ولكن كان لها دراسة خاصة في منازل الشيوخ أو في الأروقة التابعة للأزهر، فقد كانت تُدرَّس بصفة استثنائية فيها، علوم الفلك وعلوم الرياضيات، والعلوم الطبيعية، والتجريبية.

ويُحسِنُ أن نُثبِت هنا وثيقة رسمية أزهرية وضعها مشيخة الأزهر بناءً على طلب من الحكومة المصرية؛ لتبعث بها إلى لجنةِ معرض باريس، وذلك في عهد الخديوي إسماعيل سنة ١٢٨٢هـ ـ ١٨٦٥م.

وقد جاء في هذه الوثيقة أنّ المواد التي كانت تُدرَّس في الأزهر في ذلك العهد هي: الفقه، والأصول، والتفسير، والحديث، والتوحيد، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، ومتن اللغة، والعروض، والقافية، والحكمة (الفلسفية)، والتصوف، والمنطق، والحساب، والجبر، والمقابلة، والفلك، والهيئة.

وزادت المشيخة على ذلك أنه يُقرأ في الأزهر ـ فضلاً عن هذه المواد المتداولة ـ بعضُ مواد أخرى: كالهندسة، والتاريخ، والموسيقى، وغيرها لمن لهم اقتدار على دراستها، بَيْدَ أنه لم يشتغل بدراستها سوى القليل.

* * *

(٦)
ما تميّز به العصر العثماني

جاء العصر العثماني بفتح السلطان سليم مصر سنة **٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م**، وقضى على دولة المماليك فيها، فاستمرّت للأزهر أهميتُه في الدراسات الدينية، ولكن روحُه أصابها الوهن، وقوّتُه نالَ منها الضعف، واعتورَتْها عواملُ الخمول، والجمود، ولذلك أسبابُه البعيدةُ والقريبة، فقد ضعفت ملكات التفكير في العالم الإسلامي كلّه، وصارت الدولة الحاكمة بعيدة عن الروح العربية القويمة بعنصرها التركي، ولم تجد دولة العلم والثقافة من الدولة رعاية تشجّعها على التقدّم والنهضة، كلُّ ذلك أورث الأزهر صبغة من التقليد العلمي، وأضاع منه روح الاجتهاد والتجديد، فأصبحت غايةُ رجاله نقلَ ما ورثوه عن السّلَف في أمانة دون العناية بالبحث، والتمحيص، والموازنة، والتحقيق، وعكف الشيوخ على دراسة الكتب التي أُلِّفت في العصور المتأخّرة دون الرجوع إلى الأصول الأولى التي أُلّفت قديماً؛ المحتوية على روح البحث والجدة والابتكار.

وكانت كل جهود الأزهر في هذا العصر هي المحافظة على التراث القديم، والذّود عنه، مع القيام بشرحه والتعليق عليه، دون زيادة عليه، وتغيير في أصوله، أو تجديد في بحوثه.

وكانت الدراسةُ قاصرةً على العلوم الدّينية وما يتّصل بها من العلوم اللغوية، وقليلاً من الفلسفة، وقلّت فيها الدراسات العقلية والفلسفية.

وقد كان للأحوال السياسية والاجتماعية التي عاش فيها المسلمون آن ذاك أعظم دور في ذلك، فقد كانت هذه الأحوال باعثة على ضعف التفكير والانصراف إلى الجمود والتقليد.

وقد تميز العصر العثماني بفتور الهمم عن الاجتهاد في العلوم، وعن التفكير المستقلّ فيها، وعن التأليف الأصيل في أقسامها وأنواعها. فقد أقفل العلماء باب الاجتهاد، واستكانوا إلى التقليد، ورضوا به، واعتقدوا أنه لا سبيل لهم إليه. وعكفوا على فهم كُتب السابقين، وتناولوها بالشرح والحواشي والتقريرات، واعتنوا بالمناقشات اللفظية، وتتبّعوا كلمات المؤلّفين في الشروح والحواشي والتقريرات، وتغلبت هذه الغاية اللفظية على الروح العلمية الموضوعية، وصرفت الذهن عن الفكرة الأصلية إلى ما يتّصل بها من ألفاظ وعبارات، واتجه العلماء إلى الاشتغال بالفروض والاحتمالات العقلية التي لا تقع، وما يتّصل بها من الأحكام في العبادات والمعاملات، وبذلك انصرفوا عن تنمية الفقه العملي الذي يحتاج إليه الناس في معاملاتهم.

وانصرف العلماء في الأزهر وغيره في هذه الحقبة المظلمة عن دراسة العلوم العقلية والرياضيات.

وبذلك ابتعد العلماء في الأزهر وغيره عن الناس والمجتمع، فجهلوا الحياة، وجهلوا المجتمع، وجهلوا طرق التفكير الحديثة، وطرق البحث الحديث، كما جهلوا ما جَدَّ في الحياة من علم، وما جدَّ فيها من مذاهب وآراء، فأعرضوا عن الناس، وأعرض الناسُ عنهم، وابتعدوا عن القيام بالواجب الديني الذي كلّفهم الله تعالى به.

❊ ❊ ❊

(٧)
نظام الدراسة في الأزهر قبل تنظيمه

منذ أصبح الأزهر مدرسةً جامعة؛ كان يسير على نظامٍ سهل، يكاد يكون فطريّاً، أساسُه التقوى، وقوامُه احترام الدِّين وأهله، وكان شيخ الجامع الأزهر المرجع الأعلى لمن فيه، مِن أصغر طالب إلى أكبر عالم، كلمتُه هي العليا، وإشارتُه حكمٌ لا يتخطّاه واحد منهم، يوزّع الهبات، ويجيز العلماء والمـدرّسين، وكان إذا أشكلَ عليه أمرٌ استشار فيه أكابر العلماء.

كان الطالب يدخل الأزهر مختاراً بلا قيد ولا شرط. ويختلف إلى مَن أراد من العلماء لتلقّي العلم عنه، ويبقى فيه ما شاء أن يُقيم.

فإذا أنِسَ من نفسِه علماً كافياً، وملَكةً علمية يتمكّن بها من إفادة غيره استأذنَ أساتذتَه، وجلس للتدريس حيث يجد مكاناً خالياً، وعرضَ نفسه على الطلبة، فكانوا إذا لم يجدوا فيه الكفاءة للإفادة انفضّوا من حوله، وإذا وجدوا فيه الكفاءة للتدريس وَثِقُوا به، واستمرّوا على تلقّي العلم عنه، وحينئذٍ يُجيزُه شيخُ الأزهرِ إجازة.

وقد كانت الدروس تُعقَدُ فيه حلقات يتصدّر كلَّ حلقة أستاذُها، وقد يجلس على كرسيّ ليتمكّن من إسماعِ تلاميذِه الكثيرين.

وكان عمادُ الدراسة إذ ذاكَ الحوارَ والنقاش بين الأستاذ والطلبة؛ بما يعطي المعلومات ويرسّخها ويُثرِيها، ويثقّف العقلَ وينمّي ملكةَ الفهم، استمر الأزهر على ذلك النظام إلى أن اقتضى الحالُ تنظيمَه على غرارِ المدارس والجامعات الحديثة، فوضع قوانين خاصّة له ولطلبته ولعلمائه وإدارته وللدراسة فيه.

وقد كانت الدراسةُ في الأزهر قبل التنظيم مقصورةً على العلوم الدينية وآلاتها؛ مما كان يُعرَفُ بالعلوم «الأحد عشر علماً» وهي: الأصول، والفقه، والتوحيد، والحديث، والتفسير، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، والمنطق.

(٨)
مراحل التعليم في الأزهر قبل تنظيمه

كان التعليم في الأزهر على ثلاث مراحل بدون أن يُحدّدَ لكلّ مرحلة منها مدّة محدودة من الزمن، بل كان الطالب يتدرّج فيها ويقطِّعها على حسبِ مستوى ذكائه وجهدِه واجتهاده.

المرحلة الأولى: يبدأ التلميذُ فيها بتعلُّم الهجاء والقراءة والكتابة، ويحفظُ ما يتيسَّر من القرآن عن ظهر قلب، ليكون هذا الجزءُ المحفوظ المادةَ التي يستطيع أن يطبّقَ التلميذ فيها عمليّاً ما أخذَه من المعلومات النظرية في تعلّمه قواعد الهجاء والكتابة، فيطالب التلميذ بكتابة هذا الجزء المحفوظ من القرآن وقراءته، ثم ينتقل من هذا الجزء إلى غيره كتابةً وقراءةً وحفظاً حتى يُتمَّ القرآن، وهذا أول مراحل التعليم، يكون التلميذ فيها قد حفظ القرآن وتعلَّم القراءة والكتابة، وتستغرق هذه المرحلة من سنتَين إلى ثلاث سنين.

المرحلة الثانية: ثم ينتقلُ إلى المرحلة الثانية، ويظلّ تحت إشراف أستاذِه القديم، يُعطيه دروساً في القراءة والكتابة، وموضوعاتٍ إنشائيةٍ سهلة؛ يتدرّج فيها من السهولة إلى الصعوبة متمشّياً في ذلك مع النمو العقلي للتلميذ، يُقَوِّمُ الأستاذ بهذه الدروس لسانَ الطالب، ويُدرّبُه على اللغة العربية الفصحى فهماً ونطقاً، ويجعلُه يفهم ما يتلوه من القرآن الكريم على وجه الإجمال، ويكونُ التلميذُ في هذه السنّ على أبواب دور المراهقة.

وكلّ ما استفادَه من هذه البرامج والدروس في هاتَين المرحلتَين هو معرفتُه للقراءة والكتابة، وحفظُه للقرآن الكريم، وتحصيلُه إياه، وتفهُّمه له على وجه الإجمال، بحيث يستطيع التلميذ أن يستعمل ما حفظَه منه في تعميرِ حياتِه الروحية، وتكون تلاوتُه سلواه وأَنيسه، ويتخيّر من القرآن ما يتّفق مع نفسِه، فيستعملُها في دعائِه وعبادتِه

وصلاته كلّ يوم، وتكون قواه العقلية بهذا التمرّن قد نشطَت بوجه ما، ويكون لسانُه قد تقوَّم، وتدرَّب على العربية الفصحى... وهذه هي المرحلة الثانية.

وأظهر ما يبدو في هذا الأسلوب التعليمي أنه لا يبدأ بتعليم قواعدِ اللغة العربية وكلّياتها واصطلاحاتها وتعريفاتها؛ إلا بعد أن يكون التلميذ قد تذوَّق هذه اللغة بنفسِه، وتكوّنت في عقلِه ملكةً وذوقاً في المرحلة الثانية، ويتعلّم الطالب القواعد بعد ذلك في المرحلة الثالثة.

وأغلب المتعلّمين كانوا يقفون عند هذا الحدّ من التعلّم، ويتخرّجون في سنّ الثانية عشر.

المرحلة الثالثة: يدرسون فيها العلوم الإسلامية وآلاتها؛ من فقه وحديث، وتوحيد... إلخ وكان بعضُ الأفراد يدرسونَ العلوم الطبيعية والرياضيات.

فكانت المرحلةُ الأولى والثانية بمنزلةِ مدرسة ابتدائية، والمرحلةُ الثالثة بمنزلة مدرسة ثانوية وعُليا.

والمتخرّج الذي قد أنهى المرحلة الثالثة على حسب المتعارَف لم يكن يحصل على شهادة يُعترَف بها رسميّاً، وإنما كان يعتمد على مجهوده الشخصيّ وشهرتِه وكفاءته، واعتراف الناس بأهليّتِهِ ومنزلتِهِ في العلوم التي درسها.

وكان لا يتصدر التدريس إلا من مارس الفنونَ المقرَّرة في الأزهر، وتلقّاها من أفواه المشايخ، وتمكّن فيها، وصار أهلاً للتصدّر، حلّالاً للمشكلات ومُعضلاتِ المسائل، فلا يحتاج للاستئذانِ من مشايخه إلا على جهةِ الأدبِ والبركة.

وإنّما يُخبِرُ بعضَ المشايخ والطلبة فيحضرون دروسَه، ويتراكمون عليه، وهو يتأنّق في الابتداء، ويتهالك في طريقِ الإغراب والتوغّل، وقد يتعصّب عليه بعضُ الحاضرين ويتعنّت، وينتصرُ له البعضُ الآخر، وإذا تلعثَم في إجابتِه لسائلٍ ربما أقاموه ومنعوه من التصدّر، وإذا عاند ربما ضربوه.

(٩)
الإنهاض بمصر وروّاد نهضة الأزهر

الإنهاضُ بمصر مقدمةٌ للإنهاض بالأزهر وإصلاحِه، فإنّ الأزهر جزءٌ مهمّ من مصر، ولا بدَّ أن يتأثّر بما يجري بمصر شاء أم أبى.

وقبل استيلاء محمد علي باشا الكبير؛ رأس الأسرة الخديوية على مصر كانت المعارف في مصر مقصورةً على القراءة والكتابة وحفظِ القرآن الكريم، وعلى التخرج من علوم الأزهر الأحد عشر، فلما استتبّ الأمر للباشا في مصر؛ أراد أن ينهض بمصر على غرار النهضة الأوروبية الحديثة، فأنشأ عدّة مدارس لها شأن كبير في الإنهاض بمصر: مدرسة للطبّ، ومدرسة للهندسة، ومدرسة للغات، ومدرسة للزراعة، ومدرسة للصناعات، وثلاث مدارس للفنون الحربية.

ثمّ اقتفى أثرَه مَن خَلَفَه من أمراءِ الأسرة الخديوية، وحكوماتهم وأشراف الأُمة، فزادوا عدد المدارس المذكورة، وشيّدوا مِن أركانها، وفرضوا لها النفقات، فأَحدَثت هذه المدارس نهضةً علمية في مصر.

وكذلك قام محمد علي باشا للإنهاض بمصر بإرسالِ بعثات علمية إلى أوربا، بـدءاً من عام ١٢٤١هـ ـ ١٨٢٦م، وكان جُلّ أعضـاء هذه البعثات من أبناءِ الأزهر الناضجين.

وعاد أعضاء هذه البعثات من أوربا إلى مصر؛ فكانوا في مصر جيلاً جديدا له ميزاته الخاصة في الثقافة والتفكير والترجمة والإنتاج.

فكانت هذه البعثات بمنزلة النواة للإنهاضِ بمصر والتقدّمِ بها، وبعثِ الثقافة الحديثة في أرجائها.

وكان على رأس أول بعثةٍ تعليمية أرسلها الباشا إلى فرنسا الرجلُ الفذّ العبقريّ رفاعة رافع الطهطاوي الأزهري ١٨٠١م ـ ١٨٧٣م؛ الذي كان رائد الفكر الحديث بمصر، وفي مقدمة زعماء النهضة العربية الحديثة، فتح للناس آفاقاً واسعة للمعرفة، وعلى يدَيه تكوّنت نواة الطبقة المثقّفة الصحيحة التي حملت لواء التجديد.

وهو رجل استطاع أن يجمع بين حضارة الغرب المتقدّمة، ومفاخر حضارة العرب القديمة، ولذلك عُنِي بإحياءِ التراث القديم مثل ما عني بترجمة مآثرِ الغرب تحقيقاً للنهضة الفكرية، ودفعاً لحركة البعث الجديد.

والطهطاوي في أفكاره هذه وأعماله الجليلة مَدينٌ لشيخِه الشيخ حسن العطار ومتأثّر به، فقد كان العطّارُ متحرّرَ الفكر، مبتعداً عن الجمود، داعياً إلى الأخذ بالعلوم الحديثة مع الاهتمام بالعلوم القديمة، جامعاً بين الثقافة الإسلامية والغربية، وكان شعاره: «أن بلادنا يجب أن تتغيّر أحوالها، وتتجدد بها المعارف»، وهو الذي وجه الطهطاوي لتسجيل كلّ ما تقع عليه عينُه في فرنسا، وأن يجلِبَ معه كلّ ما تقع عليه يدُه من ذخائر الكتب، وهو الذي شجّعه على الترجمة، وتأسيس مدرسة الألسن.

وللعطّار مؤلّفات كثيرة قيّمة، منها حاشيته على شرح المحلي لجمع الجوامع، وحاشيته على شرح الخبيصي للتهذيب، وحاشيته على شرح المقولات العشر، توفي سنة ١٢٥٠هـ ـ ١٨٣٤م.

وهنا يظهر فضل العطار على الطهطاوي، فهو الذي دلّه على قيمة العلوم الطبيعية والرياضيات، ووجّهه إلى تعلّمها والاعتناء بها واستخدامها للإنهاض بمصر، ولتثقيف علمائها ووجهائها تثقيفاً يجمع بين القديم والنافعِ للنهضة والتقدّم من الحديث، وهو الذي حثَّه ووجَّهه إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة.

تعلَّم الطهطاوي في فرنسا الفرنسية وأتقنها، وبعد عودته من فرنسا عمل مترجماً في المدارس الفنية التي أنشأها محمد علي، ثم عُيِّن مديراً لمدرسة الألسن، وكان أكبرَ صحفيٍّ عربيّ جدَّد الصحافة وطوّرها، وجعل منها منبراً شعبياً ووسيلة لسلطة كبيرة لها خطرها.

فأهمّ رجال النهضة بمصر؛ الذين كانوا في مقدّمة الدعوة إليها، وأسّسوا أركانها كانوا هؤلاء الرجال الثلاثة: محمد علي باشا، والشيخ العطّار، ورفاعة رافع الطهطاوي.

❊ ❊ ❊

(١٠)
الحاجة إلى إصلاح الأزهر، والدعوات إلى إصلاحه، وبيان محاولة ذلك على وجه الإجمال

في أواسط القرن التاسع عشر انتشر النفوذ الأجنبي، والثقافة الغربية في مصر، ووفدت على ربوعها رسل الثقافة الأوروبية، ورجال البعثات العلمية الذين أوفدهم الخديوي إسماعيل إلى باريس وروما وجامعات إنجلترا، وأخذت هذه العوامل الجديدة تعمل عملها في تكوين العقلية المصرية، تكويناً يتلاءم مع النهضة الفكرية والاجتماعية التي كانت تسود أوروبا، وأُبعد رجال الأزهر عن كثير من ميادين النشاط الاجتماعي في الدولة، ومع هذه العوامل الهدّامة في صرح الأزهر؛ فقد كان الخديوي إسماعيل يحلُمُ بتكوين دولة عربية خاضعة لنفوذه، مؤتمرة بأمره، فدفعته آمالُه السياسية إلى العناية بأمر الأزهر وإصلاحه حتى يساير روح النهضة الحديثة في مصر، وفي عام سنة ١٢٨٧هـ ـ ١٨٧١م، صدر قانون بإصلاح الأزهر لرفع مستوى أساتذته وطلابه والثقافة فيه، وذلك في عهد شيخه الشيخ محمد العباسي المهدي الحنفي؛ الذي كان يتبرّك به الخديوي ويصطفيه، ونَصَّ هذا القانون على إجراء امتحان نهائيّ للمتخرّجين في الأزهر، وعيّن المواد التي يجب أداء الامتحان فيها ـ وهي إحدى عشرة مادة ـ وقُدّرت مرتّبات عالية للأساتذة، ومكافآت مالية للطلاب. ولكن الأزهر عادى الإصلاح، وحمل الشيخ عُلَيْش لواء المعارضة، فوقفت روح الإصلاح فيه.

واضطرب جوّ مصر السياسي بالثورة العربية وأحداثها، كما زُلزِلَ كيانُها المالي في تصفية ديونها العامة.

وكان الاحتلال الأجنبي عام ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨٢م، فوقفت حركات التجديد في سائر مرافق البلاد، وأخذ قواد الاحتلال وأعوانهم يغيّرون اتجاه الثقافة في المدارس

المصرية، حريصين على تغيير العقلية المصرية المعارِضة لمبادئ انجلترا السياسية، سواء بنشر الثقافة الانجليزية في مصر ومدارسها الحكومية، أم بإرسال بعوث إلى إنجلترا، أم بإنشاء مدارس إنجليزية لنشر الثقافة الغربية، أم بإلقاء زمام الثقافة في مصر في أيدي الأساتذة والمستشارين الإنجليز.

وأخذت المدارس المصرية تتأثّر بالآراء الغربية على كل حال، ما عدا الأزهر؛ فإنه بقي على تقاليده الصريحة، وآثر الذَّود والدفاع عنها.

ونجم عن ذلك أن اتسعت مسافة الخلاف بين الأزهر ورجال المدارس الحديثة، ووجدت في مصر ثقافتان مختلفتان متعارضتان: تقوم إحداهما على التراث الشرقيّ القديم، والتخصّص له، وتتمثل في بيئة الأزهر، وتقوم الأخرى على العلم والتفكير الغربي الحديث، وتتمثّل في مدارس الحكومة على شتّى درجاتها، وفي المدارس الأجنبية على اختلافِ الثقافات التي تدعو إليها، من فرنسية وإنجليزية وأمريكية وإيطالية ...

وهكذا استقلّت الحياة السياسية في الدولة عن الأزهر، وتُرِكَ الأزهر على حاله، يتصرّف فيه رجالُه كما يريدون، بعيدين عن توجيه السياسة المباشر لشؤون الثقافة والتعليم فيه.

وفكر الغيورون على مستقبل العلم والدِّين من أبناء الأزهر مليّاً في أمره، ورأوا حاجته الماسّة إلى الإصلاح، فطالبوا بإصلاح مناهجه ونُظُمه، ولكن هذه الدعوات قوبلت في داخل الأزهر بعصبيّة متطرّفة في الإنكار، بَيْدَ أن رغبات الإصلاح كانت قوية جبارة، وكانت النهضة الحديثة تدفعُ الأزهرَ إلى التجديد العلمي.

وكان أبرز شخصية دعت إلى هذا الإصلاح هي شخصية الإمام محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغاني، وكان الشيخ محمد عبده يرى أنّ بقاء الأزهر على حالِه

مُحال، فإما أن يعمر وإما أن يخرب؛ وابتدأ يعمل على تغيير مناهج الدراسة والثقافة فيه: بدراسة كتابي عبد القاهر «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز»، وبقراءته «البصائر النصيرية»، وقد علَّق الشيخ محمد عبده على «نهج البلاغة»، و«مقامات البديع»، وهو مَدين في أسلوبِه لمقدّمة ابن خلدون، واهتمّ الشيخ بالإصلاح.

واهتمّ بمساكن الطلاب ومكافآتهم المالية، وحَدَّد مدّة الإجازات السنوية، وأدخل في مناهج الدراسة بعضَ العلـوم الحديثة، وعُنِيَ بمكتبة الأزهر ومكتبات المعاهد التابعة له.

وبعد وفـاته في عـام ١٣٢٨هـ ـ ١٩١١م، صدر قـانون رقم ١٠ الذي انتقـل بالأزهر إلى مرحلة أخرى من النظام؛ فزيدَت مواد الدراسة، وحُدِّد اختصاص شيخ الأزهر، وأُنشِئ للأزهرِ مجلسٌ يسمى مجلس الأزهر الأعلى، ووُضِعَ نظامُ هيئةِ كبار العلماء، وجُعلَ لكلِّ معهدٍ مجلس إدارة، ولكلّ مذهب شيخ.

وهكذا أثّرت دعواتُ الإصلاح، وأخذت تخطو بالأزهر خطوةً فخطوة في سبيل التجديد والنظام والثقافة، وكان من أثرِها صدورُ قانون رقم ٣٣ عام ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م خاصّاً بإنشاء قسمٍ للتخصّص. ثم صدر عام ١٩٣٠م مرسوم بقانون رقم ٤٩ خاصّاً بإعادة تنظيم الأزهر وفروعه، فقُسِمَ الأزهر إلى كليات، وأُنْشِئت معاهدُ فروعاً له في كثير من الأقاليم، وأنشئت أقسام الإجازات، وأقسام الدراسات العليا، وتخصّصات الأستاذية، وعُدِّل هذا المرسوم بمرسوم جديد عام ١٩٣٦م. وهكذا خطا الأزهر خطوات جديدة واسعة في سبيل إصلاحه المنشود، وصار الأزهر يخرِّج شبّاناً ناضجي العقلية والثقافة.

وأصبحت مناهج الدراسة والتعليم في الأزهر تنصرفُ تدريجيّاً عن القشور إلى اللباب، وعن العناية بالبحوث اللفظية إلى الاهتمام بالفكرة وفهمها ومناقشتها.

(١١)
دور الشيخ محمد عبده في إصلاح الأزهر، وهدفه من هذا الإصلاح

لقد كان أسمى غاية الأستاذ محمد عبده من إصلاح الأزهر؛ أنْ يحملَه على الاندماج في المجتمع، والتغلغل في أعماقه، والسموّ به عن طريق الإرشاد والتهذيب الدّيني الصحيح، والتثقيف والتنوير إلى مستوى سامق من الفضيلة والثقافة، وكان يريد من وراء ذلك أن يُذْكي في الأُمة الإسلامية روحَ القوّة والفضيلة، وأن يدفع بها إلى الحياة العزيزة الكريمة، لتستطيع أن تذودَ عن حرّيتها، وتحافظ على تراثها المسلوب، وحتى يتسنّى لها إذا تابعت السير في هذا المضمار ـ أن تستعيد ما كان لها من مجدٍ باذخ وجلال قديم، فتسير في قافلة الحياة البشرية داعيةَ هدى وخيرٍ وسلام.

ولقد أبى الأزهر حينئذ أن يستجيب لدعوة الأستاذ الإمام، وآثرَ أنْ يعيش في ظلام الجمودِ والحيرة، عزوفاً عن الجديد الذي كان يراه بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد ربع قرن من وفاة الأستاذ الإمام تكشّفت غيوم الحيرة، وخَضَدَت شوكة الجمود وحماته، وأُلقيَت مقاليدُ الأزهر في يد تلميذ من تلاميذ الإمام، فأخذَت دعوتُه طريقها إلى قلوب الأزهريين وعقولهم، وسَرَتْ في الأزهر روح جديدة، وأيقن رجالُه بضرورة الإصلاح.

وقد كان محورُ دعوةِ الأستاذ الإمام لإصلاح الأزهر، رفعَ مستوى الدراسة فيه، حتى يستطيع أن يُسايرَ النهضةَ الفكرية في الشرق والغرب أولاً، وأن يؤدّي رسالته العظيمة ثانياً.

وأُنشِئت على أساس أفكاره أقسام الدراسات العليا في الأزهر ـ التخصّصات ـ بعد وفاته بكثير، وكان من أهمّ هذه الأقسام التخصّصات العالمية من درجة أستاذ التي أُنشئت عام **١٩٣٠**م، وحمَلَت عبء الثقافة الدينية والعربية والعقلية في الأزهر وكلياته من ذلك العهد، وقام خرّيجوها ببحوث جديدة في شتّى فروع العلوم والثقافة.

وكانت الغاية من إنشاء هذه الأقسام أمرين:

١ ـ إفساح المجال للبحث الحرّ أمام الأساتذة والكفاءات الممتازة من طلبة الأزهر.

٢ ـ تنشئة جيل جديد من المتخرّجين؛ يحملون في مستقبل حياتهم مشعلَ الثقافة في مصر والعالم الإسلامي.

❊ ❊ ❊

(١٢)
بيان الحاجة إلى تنظيم الأزهر، ووضعِ القوانين المنظِّمة له، وإلى إصلاحِه وتجديده على وجه التفصيل

كان الأزهر قبل تنظيمِه ووضعِ القوانين المنظِّمة له تغلِبُ عليه الفوضوية والارتباك، لم يكن هناك نظام يَضبِطُ أمورَه، ولا قوانين تحدّد ما يحتاج إلى التحديد منها، بالإضافة إلى ذلك كانت العلومُ التي تُدرَّس فيه مقصورةً على مجموعة من العلوم الدينية وآلاتها؛ مما كان يُعرَف بأحد عشر علماً؛ وهي: الأصول، الفقه، التوحيد، التفسير، الحديث، النحو، الصرف، المعاني، البيان، البديع، المنطق، وليست هذه العلوم كل العلوم الدينية، فهناك علوم دينية أُخَر يحتاج العالِمَ إلى معرفتها، كما يحتاج المتعلِّم والمثقّف إلى الإلمام بها.

ثم إنّ العلوم الدينية ليس كلّ ما يحتاجه العالم في وفائه بواجبه؛ من القيام بالدعوة والإرشاد والتبليغ، ودفعِ الشُّبه، وحلّ مشاكل المسلمين من الإجابة على نوازلهم، ولا سيما المتجدّد منها، بل يحتاج العالم من أجل القيام بواجبه؛ بالإضافة إلى معرفة العلوم الدينية وآلاتها؛ يحتاج إلى الإلمام بمجموعةٍ من العلوم العقلية والكونية، وإلى إجادة بعض اللغات الحيّة حتى يتمكّن من الدعوة إلى الإسلام ونشرِه ودفعِ الشُّبَه عنه.

من أجل ذلك وغيره؛ شعرَ الغيورون على الأزهر بحاجتِهِ إلى الإصلاح والتجديد والتحديث، وصار أهلُ الغَيرَة من رجال الأُمّة ورجال الحكومة يتلمّسون له وجوهَ الإصلاح والتجديد.

ولم يكن من السهل والميسور إصلاح مدرسة عريقة كالأزهر؛ لاعتبارات تقليدية وتاريخية، ولا من المعقول أن يسلك في إصلاحه ما يسلك في تنظيم المدارس

المدنية الحديثة الناشئة، بل كان يجب أن يتناوله الإصلاح برفق، وأن يكون بإضافة القدر الضروريّ من المعارف، وإصلاح طريقة التعليم، وباختيار الكتب، وبتوجيه هذه القوى الجبّارة المركوزة في أساتذة الأزهر وطلابه إلى جوهر العلم، وأسرار الدِّين، وأسرار اللغة العربية؛ بدلاً عن التقليد والاهتمام بالقشور والألفاظ، والاحتمالات البعيدة عن الواقع؛ وهذا ما لاحظه واضعوا قانون سنة **١٨٩٦م**، والقائمون على تنفيذه كما سيأتي قريباً.

❊ ❊ ❊

(١٣)
تنظيم الأزهر وإصلاحه

صدر أول قانون لتنظيم الأزهر في سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٨٨ م، وقد نظّم هذا القانون طريقةَ نَيلِ الشهادة العالمية، وبين مواد امتحاناتها، وقَسَّمَ الناجحين فيها إلى ثلاث درجات: أولى، ثانية، ثالثة، والمواد التي يَدرُسُها الطلبة، ويُمتحنون فيها على حسب هذا القانون؛ هي العلـوم الأحد عشر: (الأصول، الفقه، التوحيد، الحديث، التفسير، النحو، الصرف، المعاني، البيان، البديع، المنطق).

هذا القانون قد وضع حدّاً للفوضى والارتباك الذي كان عليه الأزهر منذ سابق عهده، لكنه لم ينهض بالأزهر إلى الغاية التي يرنو إليها محبو الإصلاح، ولم ينقُلْه من جموده الذي استولى عليه منذ قرون، فبقي التعليم فيه كما كان مقصوراً على العلوم الدينية والعربية وقليلٍ من الهيئة، والميقات، والحساب، للحاجة إليها في مواقيت الصلاة والمواريث.

ولم يتأثّر الأزهر ولا مناهج الدراسية فيه بالنهضة العلمية التي بعثها الباشا محمد علي الكبير في مصر، على حين أن الباشا قد أقام دعائم نهضتهِ على كواهل مجموعة من أبناء الأزهر وبسَواعِدِهم، فعلماء الأزهر وشبابُه هم الذين اختارهم الوالي للدراسة في مدارسه الخصوصية الكثيرة؛ التي أنشأها من طبٍّ، وهندسة، وزراعة، وصناعة، وقانون ولغات... إلخ، وكان قد أنشأ ثلاث مدارس للفنون الحربية.

وأعضاءُ بعوثهِ العلمية التي أوفدها إلى أوروبا من بدء عام ١٢٤١ هـ ـ ١٨٢٦ م، كان جُلُّها من أبناء الأزهر الناضجين، وعاد أعضاء هذه البعثات من أوروبا، فكانوا في مصر جيلاً جديداً له ميزته الخاصّة في الثقافة والتفكير والترجمة والإنتاج.

وسار الأزهر على نهجه العلمي بعيداً عن الدراسات العقلية والكونية والأدبية، وعن العلوم الحديثة، اللهم إلا دراسة الكتب الأولية في المنطق، ودراسة بعض كتب الأدب وآثاره كالمعلقات، والمقامات، التي ابتدئ قراءتها فيه نحو عام ١٢٤٣هـ ـ ١٨٢٨م.

وكان الطلبة في الأزهر يَقضونَ في دراسة هذه المواد من العلوم الأحد عشر، وفي تحصيلها مدّة طويلة أقلّها خمس عشرة سنة، ولا حدّ لأكثرها، وكانت هذه المواد تُدرَسُ من كُتُب صعبة من المتون التي لا يتيسّر فهمها إلا بالشروح والحواشي، ومن الشّروح الدقيقة والحواشي العميقة، فكان الدارسون لمواد الكتب يَقدرونَ على الاستقلال بدراسة الكتب وفهمها، وكانت تنمو فيهم ملكات البحث والجدل؛ ولكن إذا وازنّا بين الفائدة التي يجتنيها الأزهر من هذا التعليم التحاوري اللفظي، والمزايا التي يَفقِدُها من عدم عنايته بالعلوم الكونية، أدركنا عدم قيام الأزهر بالثقافات التي تتطلّبها حاجات العصر.

وعُيِّن بعد ذلك الشيخ حسونة النواوي شيخاً للأزهر، وكان الشيخ محمد عبده عضُدُه وساعده، فتعاونا على إنهاض الأزهر من كَبْوَته.

وفي ذلك الحين وضع القانون الصادر بتاريخ ٢٠ المحرم سنة ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٦م، وقد لحظ واضعوا هذا القانون من وجوه الإصلاح ما رأوه كفيلاً بإنهاض الأزهر، فأدخلوا فيه مواد جديدة، هي: الأخلاق، مصطلح الحديث، الحساب، الجبر، العروض والقوافي، وجعل التاريخ الإسلامي، والإنشاء، ومتن اللغة، ومبادئ الهندسة، وتقويم البلدان، وغيرها، مواد يُفضَّل مُحصّلُها على غيرِه، ويُقدَّم عليه؛ وفكّ التقيد بكتب دون أخرى، وحرُم قراءة الحواشي في السنوات الأربع الأولى.

وجعل من اختصاص مجلس الإدارة أن يُعدِّل في مواد التعليم طبقاً لما يراه من المصلحة.

وكان من حُسْن الحظّ أن الذين قاموا على تنفيذ هذا القانون وتطبيقه كان مجلس إدارة يضمّ مجموعة من كبار العلماء خلصت نيّتُهم، وتمكّنت خبرتُهم، وتوفّرت لديهم وسائل التنفيذ والتطبيق، وهم الشيخ حسونة النواوي، الشيخ محمد عبده، الشيخ سليم البشري، وهو أحد الذين تولّوا مشيخة الأزهر، الشيخ عبد الكريم سلمان العبد رحمهم الله تعالى.

سار الأزهر على هذا النظام عشرَ سنوات سيراً متّئِداً متّزناً، لم تطغَ فيه المواد الجديدة على المواد القديمة، لأنها أُخِذَت بمقدارٍ يُناسبُ حال الأزهر، ونشطَت دراسةُ العلوم الدينية والعربية بما كان يُعطى للطلاب من المكافآت السنوية، وبما كان يُنشَرُ بينَهم من أفكارِ الشيخ محمد عبده التجديدية الإصلاحية التي كان الشيخ يركّز على نشرِها في دروسِه ومحاضراته ومحاوراته.

وبذلك نهض الأزهر نهضة مباركة، لو ظلّت على حالها واستمرّت؛ لكان لها في تاريخ الأزهر شأنٌ يُذكَر، ولكنها كانت كلسانِ الشمعة أضاءت حيناً، ثم انطفأت، فقد انفرط عقد النظام، وانهارت النهضة العلمية بخروج الشيخ محمد عبده من مجلس إدارة الأزهر ووفاته سنة ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٥م.

حدَث بعد وفاة الشيخ محمد عبده أحداثُ وفِتَن، وعوّلت الحكومةُ على إنشاءِ مدرسة للقضاءِ الشرعي، فصدر بها قانون في سنة ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٧م، وكانت الحكومةُ قد أنشأَتْ مدرسة دار العلوم أيضاً لتخريج معلمي العربية، فشعرَ الأزهريون بأنّ الحكومة قد أصبحت في غنى عنهم، لأنّ لها مدرسةً لتخريج معلمي العربية في

مدارسها، ومدرسةً لتخريج القضاة، وضاق القائمون على الأزهر من تقلّص ظلّه، ومن عدمِ إقبالِ الناس عليه، حيث لم يبقَ بعدَ ذلك للمتخرّجين منهم إلا وظائف الإمامةِ والخطابة في المساجد.

ففكّروا، وفكّر الناس معهم في إعادة تنظيم الأزهر على مثال مدرسة القضاء، ومدرسة دار العلوم، بل على مثالٍ يُوجِدُ للدراسة مواد أكثر ومناهج أطول، وانتهى الأمر إلى وضع القانون رقم ١٠ السنة ١٣٢٨هـ ـ ١٩١١م، قَسَّمَ هذا القانون الدراسة في الأزهر إلى مراحل، وجعل لكل مرحلة نظاماً ومواد للدراسة، وحدّد اختصاص شيخ الأزهر، وأنشئت هيئةٌ تُشرِف على الأزهر، تسمى المجلس الأعلى للأزهر، وأَوْجَدَ هيئة كبار العلماء، وجَعَلَ لها نظاماً خاصّاً، وجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة التي تُدرَّس في الأزهر شيخاً، ونَظَّمَ مجالس إدارات المعاهد، ووضع نظاماً للمدرّسين والموظّفين في التعيين والترقية، ووضع للطلاب شروطاً للقبول، ونظّم الامتحانات والشهادات، وأَدْخَلَ في الأزهر علوماً لم تكن تُدرَّس فيه مما يحتاج إليها العالم لقيامه بمتطلّبات العصر وأداء واجبه.

وكثر الإقبال على الأزهر، ووُجِدت معاهد أخرى في عواصم المديريات وبعض المحافظات جَرَتْ على نهجِه، وسارَت على نظمِه.

محاسن هذا القانون ومساويه وما نجم عنه من الضرر بالمستوى العلمي:

وهذا القانون أفاد الأزهر من ناحية، لأنّ تعلّم التاريخ، والجغرافيا، والرياضيات، ومبادئ الطبيعة، والكيمياء، قَرَّبَ طلبة الأزهر من تلاميذ المعاهد الأخرى، وغَيَّرَ من عقيلتهم، ووسَّع أُفق تفكيرهم، وإدخال المطالعة والمحفوظات والإنشاء أوجد من أهل الأزهر عدداً كبيراً من الكُتّاب والشعراء، ومكّنهم من القدرة على الخطابة والوعظ.

لكن هذه الفائدة التي أفادها القانون رقم 10 السنة 1328هـ ـ 1911م، تُعدّ ضئيلة بجانب الضرر الذي نجم عنه، وذلك لأن المعاهد أهملَت الامتحان الشفوي، وعوّلت على الامتحان التحريري، فاعتمد الطلاب لينجحوا في الامتحانِ التحريري على الحفظ والاستظهار، وشعر المهيـمنون على التعليم في الأزهر منذ وضع ذلك القانون بأنّ الأزهر أخذ يفقِدُ أهـمّ خصائـصه ومميـزات تعليـمه، ولم تَخلُ تقارير المفتّشين في سنة من السنوات من الشكاوى من اعتماد الطلبة على الاستظهار، ومن ضعف ملكاتهم العلمية.

من أجل ذلك توالت على هذا القانون التعديلات التالية.

❊ ❊ ❊

(١٤)
أهمّ محاولة لإصلاح الأزهر، ولتعديل قوانينه

وضع الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر مذكرة في إصلاح الأزهر، تلك المذكّرة التي تعتبر دستور الأزهر الحديث، وكلّ ما يلهج به دعاة الإصلاح بعدها فهو مقتبس منها، ومستمَدّ من مبادئها وروحها، فقانونا سنتي **١٩٣٠هـ ـ ١٩٣١م**، هما في الحقيقة قانون واحد صِيغا من مبادئها، وفُصِّلا من إجمالها؛ وبهذَين القانونَيـن انتقـل الأزهر من حال الاضطراب الثقافي إلى حال الاستقرار النهائي، ومن حال العزلة التي أنكرها على نفسه، وأنكرها عليه الناس إلى حال المشاركة في الشؤون العامة للأمة، فقد جعلت هذه القوانين العالِـمَ الأزهريّ عضوًا حيّاً في أُمّته، يُفيد منها وتُفيد منه، ورسمت له غايته والوسائل التي تُعينه على أدائها، وشملَت هذه القوانين نواحي إصلاحية كثيرة.

وتوالت على هذا القانون تعديلات، آخرها التعديل الذي أُدخل عليه بالقانون رقم 49 سنة 193 9م، وهو أظهر تعديل طرأ عليه، وكان في عهد الشيخ محمد الأحمدي الظواهري شيخ الجامع الأزهر **١٩٢٩-١٩٣٥م**.

ففي هذا التعديل قُسم التعليم العالي إلى ثلاث كليات:

واحدة: لعلم أصول الدين.

وثانية: لعلوم الشريعة.

وثالثة: لعلم اللغة العربية.

وأوجد تخصّصاً سمّي تخصّص المادة، وآخر سمّي تخصّص المهنة.

والغرض من التخصّص في المادة إعداد علماء متفوّقين في العلوم الأساسية لكلية من الكليات الثلاث؛ بعد دراسة عميقة ليمكّنهم القيام بوظائف التدريس في الكليات.

والغرض من التخصّص في المهنة؛ إعداد علماء يقومون بمهنة الوعظ والإرشاد، أو الوظائف القضائية بالمحاكم الشرعية والإفتاء والمحاماة، أو التدريس في المعاهد الدينية ومدارس الحكومة.

وكان الغرض من تقسيم التعليم العالي إلى ثلاث كليات، ومن نوعي التخصّص أن تتفرَّغَ كلُّ طائفة من الطلاب في التعليم العالي، والتخصّص لطائفة من المواد الكثيرة التي كانت قبل التقسيم تُدرَّس مجتمعة حتى يتيسّر إتقان الدرس والفهم، وإتقان التحصيل.

ولإعداد خِرّيجي هذه الكليات إعداداً جيداً؛ أُدخِل في مناهج تدريس هذه الكليات ـ لأوّلِ مرّة في تاريخ الأزهر ـ مجموعة من العلـوم التي تتّصل بمهمّتهم، فأُدْخِل في مناهجها فقه اللغة، وعلم النفس، وعلم التربية، وعلم الفلسفة، وتاريخ الأديان، ودراسة الفرق الإسلامية، وأصول القوانين، والاقتصاد السياسي، والنظام الدستوري، كما أُدخِل فيها بعض اللغات الغربية والشرقية.

ومما تضمّنه القانونُ إنشاءُ معاهد للاستماع، خاصّةً في بعض المدن لا تتقيد هذه المعاهد بقيود المعاهد النظامية، والغرض منها سدّ حاجة مَن يُريد معرفة أحكام الدِّين واللغة العربية من جمهرة الأُمة، على أن يتبع فيها طريقة التدريس التقليدية في الأزهر، ويكون مقرّها المساجد.

ومع هذا ظلت الشكاوى قائمة، وظهر أن الداء الذي يجب أن يُحسَم ويُستأصل؛ هو ضعفُ الطلبة في القسم الثانوي بسبب كثرة المواد، أو بسبب طول المناهج في

بعض المواد التي لا يحتاج الطالب في الأزهر إلى طول المناهج فيها، فهذه الكثرة وهذا الطول لم يدعا وقتاً لفهم الدرس وإتقانه، ولم يدعا وقتاً لطول التفكير والبحث والجدل، وتنمية ملكات العلوم والاستنباط.

ومع ذلك يُعدّ هذا القانون أول خطوة رسمية في تمكين الجامع الأزهر من مسايرة التقدّم العلمي والاجتماعي في العصر الحاضر، وفي تزويدِ طلَّابه بما يجب أن يُحيط به عالم الدِّين الحديث من العلوم والثقافة والاتجاهات.

و جعل هذا القانون التعليم في الأزهر أربع مراحل:

١ ـ ابتدائي: أربع سنين.

٢ ـ ثانوي: خمس سنين.

٣ ـ عالٍ: أربع سنين.

٤ ـ تخصّص.

وأضاف إلى هذه المراحل أقساماً غير نظمية.

القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م:

صدر هذا القانون في عهد المغفور له الشيخ محمد الأحمدي الظواهري؛ شيخ الجامع الأزهر (١٩٢٩م-١٩٣٥م)، وقد أُنشئت بمقتضاه الكليات الثلاث القائمة الآن بالأزهر، وهي: كليات اللغة العربية، وأصول الدِّين، والشريعة، وقد نصّ فيه على جواز إنشاء كليات أخرى.

ويُعدّ هذا القانون ـ بحقّ ـ أوّلُ خطوة رسمية في تمكين الجامع الأزهر من مسايرة التقدّم العلمي والاجتماعي في العصر الحاضر، وفي تزويدِ طلابه بما يجب أن يُحيطَ به رجل الدِّين الحديث من العلوم ومن الاتجاهات.

وقد جعل هذا القانون التعليم في الأزهر أربع مراحل:

١ ـ ابتدائي: ومُدّته أربع سنوات، ويُدرّس فيه من المواد ما يلي:

الفقه، الأخلاق الدينية، التجويد، استذكار القرآن الكريم، التوحيد، السيرة النبوية، المطالعة والمحفوظات، الإنشاء، النحو، الصرف، الإملاء، الخط، التاريخ، الجغرافيا، الحساب، الهندسة العملية، مبادئ العلوم، تدبير الصحة، الرسم.

٢ ـ ثانوي: ومُدّته خمس سنوات، وتُمنح منه شهادة الثانوية قسم أول، وشهادة الثانوية قسم ثان؛ ويُدرّس فيه من المواد ما يلي:

الفقه، التفسير، الحديث، التوحيد، استذكار القرآن الكريم، النحو، الصرف، البلاغة (البيان، البديع، المعاني)، العروض والقافية، المطالعة والمحفوظات، الإنشاء، أدب اللغة، الرياضيات (الحساب والهندسة والجبر)، العلوم (الطبيعة، الكيمياء، التاريخ، الطبيعي)، المنطق، التاريخ، الجغرافيا، الأخلاق، التربية الوطنية.

٣ ـ عال: ومُدّته أربع سنوات، وينقسم إلى ثلاث كليات:

أ ـ كلية اللغة العربية: ويُدرّس فيها من المواد ما يلي:

النحو، الوضع، الصرف، المنطق، علوم البلاغة، الآداب العربية، وتاريخها، تاريخ العرب قبل الإسلام، وتاريخ الأمم الإسلامية، التفسير، الحديث، الأصول، الإنشاء، فقه اللغة.

ب ـ كلية الشريعة: ويُدرّس فيها من المواد ما يلي:

التفسير، الحديث متناً ورجالاً ومصطلحاً، أصول الفقه، تاريخ التشريع الإسلامي، الفقه مع مقارنة المذاهب في المسائل الكلية وحكمة التشريع، آداب اللغة العربية، علوم البلاغة، المنطق.

ج ـ كلية أصول الدين: ويُدرّس فيها من المواد ما يلي:

التوحيد مع إيراد الحجج، ودفع الشُّبه، خصوصاً الذائع في العصر، منها: المنطق والمناظرة، الفلسفة مع الردّ على ما يكون منافياً للدِّين منها، الأخلاق، التفسير، الحديث، آداب اللغة العربية وتاريخها، تاريخ الإسلام، علم النفس، علم البلاغة.

٤ ـ التخصّص وهو على نوعَين: تخصّص في المهنة وتخصّص في المادة، والغرض من التخصّص في المهنة، هو إعداد علماء يقومون بمهنة الوعظ والإرشاد، أو الوظائف القضائية في المحاكم الشرعية، والإفتاء والمحاماة، أو التدريس في المعاهد الدينية ومدارس الحكومة.

والغرض من التخصّص في المادة: إعداد علماء متفوّقين في العلوم الأساسية لكلّ كلية من الكليات الثلاث، بعد دراسةٍ عميقة ليمكّنهم القيام بوظائف التدريس في الكليات.

ويُعيّن حامل شهادة هذا القسم في وظائف التدريس بالكليات، وبأقسام التخصّص.

وهناك بالإضافة إلى ذلك أقسام غير نظامية يُسمَح فيها بدخول الطلبة الذين لم تتوافر فيهم شروط القبول بالأقسام النظامية، وكذلك أفراد الجمهور للتوسّع في دراسة اللغة العربية والعلوم الدينية.

قانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦م:

ورأى الشيخ مصطفى المراغي عقب تولِيَتِه شيخاً للأزهر سنة **١٩٣٥**م أن يضع مشروع قانون لإصلاح الأزهر؛ يفي بالأغراض التي تحقّق آمال المسلمين فيه، وتَرجعُ به إلى عصوره الزاهرة من البحث العلمي السليم والتفكير الحر، ودراسة الفنون التي تتّفق مع طابعِه القديم، وتطابق مقتضيات العصر وتلبّي مَطالِبه؛ وقد

وضع ذلك المشروع وتقدّم به لولي الأمر، فصدر به مرسوم بقانون تحت رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦م، وقد وضع بجانبه مذكرة إيضاحية بيَّنَ فيها الأغراض التي قصد إليها في مشروعه، ونحن نثبت هنا بعض ما جاء في المذكّرة في هذا الصدد مما جاء فيها ما يلي:

«إننا إذ نحاول إصلاح الأزهر؛ نريد أن نُوجد طالباً يفهم مسائل العلوم فهماً صحيحاً، ويفهم أغراضها وصلتها بأدلتها، وصلتها بعضها ببعض، ويستطيع التطبيق على الجزئيات، ويستطيع الاستنباط والتدليل، ويستطيع فهم الكتب القديمة التي أُلّفت في العصور المختلفة في جميع الفنون الإسلامية».

«وإني على بُغضي لأكثر الكتب التي أُلّفت في العصور المتأخّرة، أَكرَه من الطلاب أن يعجزوا عن فهمها. لأنّ فيها خيراً كثيراً، ودقائق لا يصحّ الجهل بها، لذلك أُحبّ أن يستطيع الطلاب فهمها، ويقدروا على حلّها».

«نعم إني لا أحب أن تُدرّس العلوم على هذه الكتب، بل أحبّ أن توجدَ الكُتب في جميع الفنون الحديثة على أسلوبٍ عربيّ صحيح، مناسبٍ لأذواقِ الأجيال الحاضرة، تُهذَّبُ فيه المسائل على أحسن ما وصل إليه التحقيق العلمي، وأن تُحيى الكتب القديمة الجيدة في الأسلوب والوضع، فهذا الميراث العظيم يجب أن يؤخَذ كلّه سلسلةً متصلةَ الحلقات».

«هذا الذي نحاوله بالتجديد يجب ـ على ما أرى ـ أن يضعه الناس أمامهم، وأن يَجِدُّوا للوصول إليه، وهو غايةٌ يَقِلُّ في جانبها كلّ جهد، ويرخص في سبيلها كلّ ما يُبذلُ للوصول إليها، ولقد كان أسلافنا أشدّ الناس عناية بالعلم، فلم يمضِ الزمان القليل حتى أخذوا علمَ اليونان، وأدبَ الفرس، وحكمةَ الهند، واستعانوا بذلك في تفسير القرآن، وفي وضع علم الكلام على الأُسس التي نراها في مثل «المواقف»

و«المقاصد»، واستعانوا به في تنظيم مسائل العلوم جميعها، فلم يَخلُ علمٌ من أثرِ الفلسفة والمنطق، ولقد كانت لهم محاولات جديرة بالإعجاب في التوفيق بين الدِّين ونظريات الفلسفة.

وقد أخذ العلمُ يسيرُ في هذا العصر سيرةً جديدة، وتغيّرت نظريات الفلسفة، وحدثَت نظريات أخرى، وكان من شأن ذلك كلّه أن تَوَجَّهَ على الأديان جملة، وعلى الإسلام خاصّة، حملات، وصار من الواجب الحتم على علماءِ المسلمين أن يُحيطوا علماً بكلّ ما يُوجَّه إلى الأديان عامة، وإلى الإسلام خاصّة من المطاعن، وأن يَردّوا تلك المطاعن التي تُوَجّه إلى الإسلام، ويَذودوا عن عقيدتِهم بأدلّة ناصعة، وأسلوبٍ مُقنع ممتع، ليُجَنِّبُوا المتعلمين تعليماً مدنيّاً الشُّبَه الزائفة، وليضمّوا إلى الإسلام أفراداً وشعوباً من الأمم التي تطّلع إلى الإسلام، وتبتغي الوقوف على خصائصِه ومزاياه، وهذا لا يَتمّ لهم على ما ينبغي إلا بالاتصال بغيرهم اتصالاً علميّاً، وتُعرَفُ اللغات الحيّة التي يَكثُر فيها الإنتاج العلمي، والتي يتناول بها العلماء مسائل الإسلام، ومسائل اللغة العربية.

وهناك فائدة أخرى لتعليم اللغات، وهي أنها تساعد على معرفة طريقة وضع الكتب، وعلى معرفة الأسلوب الحديث في التأليف والتفكير، وطريقة عرض المسائل على أنظار المتعلمين».

«ولا ندّعي أنّ إصلاح القانون، وتنفيذَ هذا المشروع، يحقّق الأغراض التي نرمي إليها، ويوجد الطالب الأزهري الذي نبتغيه، بل إنّ الذي يُحقّق هذه الأغراض الرغبةُ الصادقةُ في التعليم، والعزيمةُ القويةُ على احتمال الجهد، والصبرُ لقطعِ مراحل التعليم في هدوءٍ وطمأنينة، والإيمان بأنّ العلم عزيزٌ يُقتنى، وحلية للنفس، ومتعةٌ للعقل، وجمالٌ لمن يتّصف به، والحرص على الإفادة والتعليم، والإيمان بأن

ذلك فرض للعلم واجب لله ولرسوله وللمؤمنين، والشعور بلذّة أنّ الإنفاق منه يزيد في الثروة، ويُشبِعُ نَهَمَ النفسِ التوّاقة إلى الغنى، وأنّ هذه الثروة خير مما هو مخزون في خزائن الأغنياء».

وعند النـظر في مواد التعليم لإصلاح القانون رقم **٤٩** لسنة **١٩٣٠** م، والقانون رقم **٣٧** لسنة **١٩٣٣** م، رأى الشيخ المراغي إدماجهما معاً، كما رأى أيضاً أنْ يشمل الإصلاح الأبواب الأخرى من هذَين القانونَين، فتمّ ذلك، وتألّف منهما المشروع التالي.

❊ ❊ ❊

(١٥)
الدراسة في الأزهر الحديث

جعل قانون **١٩٣٦**م، التعليم في الأزهر أربع مراحل:

١ ـ ابتدائي: ومُدّته أربع سنوات، ويُدرّس فيه من المواد ما يلي:

أ ـ علوم دينية: الفقه، التوحيد، السيرة النبوية، وسيرة كبار الصحابة، تجويد القرآن الكريم.

ب ـ علوم اللغة العربية: الإنشاء، النحو، الصرف، الإملاء، المطالعة، المحفوظات.

ج ـ علوم أخرى: التاريخ، الجغرافيا، الرياضيات، تدبير الصحة، الرسم، الخط.

٢ ـ ثانوي: ومُدّته خمس سنوات، ويمنح منه شهادة واحدة هي شهادة إتمام الدراسة الثانوية، ويُدرّس فيه من المواد ما يلي:

أ ـ علوم دينية: الفقه، التفسير، الحديث متناً ومصطلحاً، التوحيد.

ب ـ علوم اللغة العربية (النحو، الصرف)، البلاغة (البيان والمعاني والبديع)، الإنشاء، أدب اللغة، العروض والقافية، المطالعة والمحفوظات.

ج ـ علوم أخرى: المنطق، أدب البحث، الطبيعة، الكيمياء، علم الحياة، الجغرافيا.

الكليات وهي ثلاث:

١ ـ كلية الشريعة: وتتبعها الأقسام الآتية:

أ ـ شهادة الدراسة العالية: ومدّتها أربع سنوات.

والمواد التي تُدرّس للحصول عليها:

التفسير، الحديث متناً ورجالاً ومصطلحاً، أصول الفقه مع حكمة التشريع ومقارنة المذاهب في المسائل الكلية، تاريخ التشريع الإسلامي، المنطق، الفلسفة، لغة أجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) وتُدرّس بصفة اختيارية.

ب ـ شهادة العالمية مع إجازة القضاء: والمواد التي تُدرَّس للحصول عليها بعد النجاح في الشهادة العالية: قوانين ولوائح المحاكم الشرعية، والأوقاف، والمجالس الحسبية، والتوثيقات الشرعية، إجراءات وتمرينات قضائية، ودراسة القضايا ذات المبادئ، السياسة الشرعية، القانون الدولي الخاص، تاريخ القضاء والقضاة في الإسلام، النظام الدستوري للدولة، محاضرات في مبادئ الاقتصاد، محاضرات طبية، محاضرات فلكية، لغة أجنبية اختيارية، وهي التي دُرّست في الكلية.

ج ـ شهادة العالمية من درجة أستاذ في الفقه والأصول: والمواد التي يتخصّص فيها للحصول عليها بعد النجاح في الشهادة العالية: أصول الفقه مع حكمة التشريع، ومقارنة المذاهب، وتاريخ التشريع الإسلامي.

٢ ـ كلية أصول الدين: وتتبعها الأقسام الآتية:

أ ـ شهادة الدراسة العالية في أصول الدين: والعلوم التي تُدرّس للحصول عليها هي:

التوحيد، التفسير، الحديث متناً ومصطلحاً ورجالاً، المنطق وأدب البحث، الأخلاق، الفلسفة، الأصول، التاريخ الإسلامي، علم النفس، لغة أجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية).

ب ـ شهادة العالمية مع الإجازة في الدعوة والإرشاد: والمواد التي تُدرّس للحصول عليها بعد النجاح في الشهادة العالية هي:

القرآن الكريم وعلومه، الحديث الشريف وعلومه، الدعوة إلى سبيل الله ووسائلها، الخطابة والمناظرة، الـمِلَل والنِّحَل والمذاهب الفقهية وتواريخها، البِدَع والعادات، اللغة الأجنبية التي دُرِسَت في الكلية، لغة شرقية.

ج ـ شهادة العالمية مع درجة أستاذ في التوحيد والفلسفة: والمواد التي تُدرَّس للحصول عليها بعد النجاح في الشهادة العالية هي:

التوحيد، الفلسفة، المنطق، الأخلاق.

د ـ شهادة العالمية مع درجة أستاذ في علوم القرآن الكريم والحديث الشريف.

هـ ـ شهادة العالمية مع درجة أستاذ في التاريخ الإسلامي.

٣ ـ كلية اللغة العربية: وتتبعها الأقسام الآتية:

أ ـ شهادة الدراسة العالية في اللغة العربية.

ب ـ شهادة العالمية مع الإجازة في التدريس.

ج ـ شهادة العالمية مع درجة أستاذ في النحو.

د ـ شهادة العالمية مع درجة أستاذ في البلاغة والأدب.

الكليات في جامعة الأزهر الشريف:

ثم لم تتوقف الإصلاحات في جامعة الأزهر إلى يومنا هذا، وفي كل فترة زمنية تجد أموراً جديدة من إضافة بعض المواد، أو إنشاء كليات جديدة، إلى أن ظهرت الجامعة العريقة على الشكل التالي:

الكليات الشرعية:

كلية أصول الدين: وتبدأ الدراسة فيها عامّاً، ثم في السنة الثالثة يبدأ التخصّص

في أحد الأقسام الأربعة: قسم التفسير وعلوم القرآن، قسم الحديث وعلومه، قسم العقيدة والفلسفة الإسلامية، قسم الدعوة والثقافة الإسلامية.

كلية الشريعة والقانون: وفي السنة الأولى من الدراسة تنقسم الدراسة إلى: قسم الشريعة الإسلامية، وقسم الشريعة والقانون الوضعي، ثم تبدأ التخصّصات في كل قسم في الدراسات العليا.

كلية اللغة العربية: وفيها ثلاث شُعب، الشعبة العامَّة، شعبة الصحافة والإعلام، شعبة التاريخ، ثم تبدأ التخصصات في كل قسم في الدراسات العليا.

كلية الدراسات الإسلامية والعربية: وهذه الكلية حديثة، جمعت بين مواد كل من: كلية أصول الدين والشريعة الإسلامية واللغة العربية، والتخصّص فيها إما في أصول الدِّين أو الشريعة الإسلامية أو اللغة العربية في مرحلة الدراسات العليا.

كلية الدعوة والثقافة الإسلامية: وهي أيضاً كلية حديثة، ويبدأ التخصّص في مرحلة الدراسات العليا.

والكليات الأخرى هي: كلية الطبّ، طبّ الأسنان، الصيدلة، الهندسة، العلوم، الزراعة، الألسن والترجمة.

وقد تُضاف إلى هذه الكليات في المستقبل القريب أو البعيد كلياتٌ أخرى، حسب ما يراه القائمون على الجامعة.

❊ ❊ ❊

ما آل إليه حال الأزهر بعد محاولات إصلاحه من التقدم في الثقافة، والتقهقر في مستوى العلوم الشرعية:

والحاصل: أنه قد اتضح مما عرضناه من جهود إصلاح الأزهر وتعديله أنَّ البيئة الثقافية في الأزهر قد تطورت في العصر الحديث بتأثير الحضارة الفكرية الغربية. وبفضل لفيف من علمائه الأعلام الخالدين.

وقد كان الأزهر في أوائل القرن التاسع عشر ينظر إلى ثقافة الغرب وحضارته بشيء من الفتور والكراهية إيمانا منه بسيادة المسلمين السياسية والفكرية والثقافية، لكنه لم يجحد في يوم من الأيام فكرة السعي إلى النهضة والتطور، فقد سافر بعض أبنائه في بعثات حكومية إلى باريس ولندن وسواهما من عواصم الغرب وكان من أشهرهم رفاعة الطهطاوي.

وتطلع بعض علمائه في أواخر القرن التاسع عشر إلى معرفة بعض اللغات الغربية لدراسة أصول حضارة الغرب الحديثة الفكرية والثقافية، وللرد على ما يثيره بعض الغربيين حول الإسلام من شبهات، وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ محمد عبده كان أكبر رائد أزهري للفكر المصري في العصر الحديث.

ونهض شيوخ الأزهر منذ أواخر القرن التاسع عشر بعبأ إصلاح البيئة الثقافية داخل الأزهر، وبعث روح التجديد في حلقات الأزهر العلمية.

لكن هناك مخاوف من قبل بعض العلماء بشأن اضمحلال الروح العلمية في الأزهر بسبب النظم الحديثة التي أدخلت فيه مثل نظم الامتحانات، وتحديد المقررات، وكثرت المواد الدراسية التي لا تتصل بالدراسات الإسلامية.

حتى إن البعض يرى أن مستوى التحصيل في الأزهر قد انخفض انخفاضا ملموسا بسبب انصراف الطلبة إلى إحراز الشهادات التي تعتبر سلاحا للتوظيف دون التزود بالعلم لذاته، والتعمق في المعرفة.

ويرى هذا البعض أن على الأزهر أن يعمل جاهدا للعودة لذلك الجو العلمي البحت الذي عرف به قديما. وأن يقضي على نظام الامتحانات، أو يعدلها بحيث ينصرف الطلاب للعلم دون ملاحظة الشهادات العلمية كهدف يتعين عليهم تحقيقه للحصول على الوظائف.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

التعليم الديني
في العهد العثماني

وفيه:

١ـ مدارس الصحن الثمان.

٢ـ المدارس السليمانية.

٣ـ الانكماش والتقهقر في المدارس الدينية العثمانية، وفشل محاولات الحيلولة دونه، وإنشاء المكاتب لتخريج الإداريين للدولة.

٤ ـ أسباب جمود هذه المدارس وانكماشها.

٥ ـ العلل التي تمكنت في المدارس الإسلامية في العصور المتأخرة.

٦ ـ الجهود التي بذلت لإصلاح هذه المدارس.

٧ ـ المدرسة الإصلاحية النموذجية في مدينة قونيا.

الفصل الثالث
التعليم الديني في العهد العثماني

من المعلوم أنَّ الدولةَ العثمانية وريثةٌ للدولة السلجوقية، من أجل ذلك كان التعليم الدّيني في أوائل الدولة العثمانية استمراراً لما كان عليه في عهد السلاجقة، وكان نظامُ المدارس في العهود المبكّرة للدولة العثمانية هو نفسُ النظام الذي كان مطبّقاً في العهد السلجوقي، وبتقدّم الدولة وتوسّعها كان يحصل تغيّرٌ في نظام التعليم وتقدّمٌ فيه.

وقد شهد نظامُ التعليم تطوراً كبيراً في عهدِ السلطان مراد الثاني بافتتاح قسم التتمة التابعة للمدرسة الحلبية في أدِرْنَة (Edirne)، وكذلك بافتتاح مدرسة دار الحديث في أدرنة (Edirne) أيضاً.

❊ ❊ ❊

(١)
مدارس الصحن الثمان

أما التغيير الجذريّ لنظام التعليم العثماني فحدَث في عهد السلطان محمد الفاتح، حيث أمر بإنشاءِ مدارس الصحن الثماني؛ حول المسجد الذي أنشأه في إستانبول، في الحيّ المعروف بفاتح.

وكانت هذه المدارس أرفعَ المدارس وأعلاها؛ حتى تاريخ إنشاء المدرسة السليمانية في عهد السلطان سليمان القانوني.

والعلوم التي كانت تُدرَّس فيها كانت هي العلوم الإسلامية، لكن في المستوى العالي منها، وهي: الهدايةُ في الفقه الحنفي، والتلويح، وشرح العَضُد في أصول الفقه، والبخاري، وتفسيرَي الكشّاف والبيضاوي، وكان يُدرَّس فيها مع ذلك قسم من العلوم غيرِ الدّينية؛ مثل الطبّ والهندسة، وعلم الهيئة، والجغرافيا، والمنطق، وكانت هذه المدارس تحتوي كليةً للطبّ كانت تُعرَف بدار الشفاء، وكان يُدرَّس فيها العلوم الطبية بفرعَيها العلمي والعملي.

وكانت المدارس العثمانية تخضعُ في فتراتٍ مختلفة للتعديل والتغيير في نظامها، ومن ضمن هذا التعديل أن أُدخِل في نظامها ما كان يسمى بالجزئيات، وهي: الفلسفة، الحساب والهندسة، علم الهيئة (الفلك)، الجغرافيا، علم الزيج (الجداول الفلكية)، علم النجوم، الطب، التشريح، كما أضيفت إليها علوم الآلة.

❊ ❊ ❊

(٢)
المدارس السليمانية

أهمّ التطوّرات في نظام التعليم بالمدارس العثمانية؛ كانت تلك التي حدثَت على عهد السلطان سليمان القانوني، فعهد القانونيّ يُمثّل القمّة في نظام المدارس، كما يمثل القمّة في سائر المجالات الأخرى، وذلك أن السلطان سليمان أنشأ مسجده المعروف باسمه، وأنشأ حوله منظومةً من المدارس (جامعة) كانت تحتوي دار الحديث، وكليات الطبّ، والرياضيات، والطبيعيات، والدّين والحقوق، والآداب، بالإضافة إلى مستشفى، وحمام، ومطبعة، ومبنى إدارة، وغير ذلك من الملحقات.

وكانت دار الحديث من بين هذه المدارس أعلاها مرتبة، كما كانت أعلى مرتبة من جميع المدارس الموجودة بالديار العثمانية، والمدرِّس فيها يتقاضى يوميةً قدرُها مائة أقجة، أما يومية المدرِّسين في المدارس الأخرى فكانت لا تزيد على ستين أقجة، وحافظت دار الحديث السليمانية على مكانتها حتى العهود المتأخرة من عمر الدولة العثمانية.

وكان هدف القانونيّ من إنشاء هذه الجامعة فتح مدارس جديدة في مستوى أعلى من مستوى المدارس الثمان من جهة، وتنظيم درجات المدارس العثمانية وفق النظامِ الجديد من جهة أخرى، وقد وضعَ حجرَ أساسِ الجامعِ والمدارس والملحقات يوم الخميس السابع من جمادى الأولى من عام ٩٥٧هـ، الموافق للرابع والعشرين من مايو ١٥٥٠م، وذلك بوضع أول حجر للمحراب من قِبَلِ شيخ الإسلام أبي السعود رحمه الله، وقد تمَّ بناء الجامع في شوال ٩٦٣هـ، الموافق أغسطس ١٥٥٦م. وتمَّ بعد ذلك بناء المدارس.

(٣)
الانكماش والتقهقر في المدارس الدينية العثمانية، وفشل محاولات الحيلولة دونه، وإنشاء المكاتب لتخريج الإداريين للدولة

بقيت طرق التدريس في الدولة العثمانية منذ تأسيس مدارسها الأولى، وخاصّة المدارس الثمان التي أنشِئت على عهد السلطان محمد الفاتح مطبّقة بحذافيرها، مع حدوث بعض التغييرات، وبعض الأحداث العارضة.

ولكن في الربع الأخير من القرن السادسَ عشر الميلاديّ حدثت مشاكلُ في مؤسّسات التربية والتعليم، مما جعل هذه المؤسّسات تتأخّر وتتقهقر.

وحالت هذه المشاكلُ والعوائقُ دون استمرارِ المدارس في إعطاءِ أُكُلِها على الوجه المطلوب، صارت هذه المشاكل والعوائق تستمرّ وتزداد بمرور الزمان وتتقدَّم بتقدُّمه.

وقد أحزنَ الكثيرَ من الغيورين هذا الوضعُ المتقهقرُ المُزْرِي في هذه المدارس؛ التي كانت في بداية أمرِها فما بعدَه إلى أمَدٍ ليس بقصير تُناسِبُ التطوّرَ العلميّ والتَقَنيّ، وتقوم بواجب التعليم على مستوى الجامعات التي نَعرِفها في العصر الحديث.

أحزنَ هؤلاء الغيورين أنْ آلت هذه المدارس إلى وضعٍ لم تَعُدْ تُواكِبُ الظروف المتغيّرة في العالم، بل بقيَت غريبةً على العلومِ والتقنية والطُّرق المتّبعة في مراكز العلوم والصناعة.

في الوقت الذي لم تكن فيه القوانين والنُّظُم التي وُضِعَت حين تأسيسِ هذه الصروح العليمة تُطبَّق على النحو المطلوب.

وبُذلت جهودٌ لإصلاح هذه المدارس، وصدرت أوامر سلطانية في فترات مختلفة لإزالةِ الأسباب التي أَدَّت بهذه المدارس إلى التأخُّر، ولكن هذه الجهود قد فشلت في الحيلولة دون هذا التّدهور والتقهقر، لأنه لم يكن من السهل ولا من الميسور مواكبةُ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي أجمع الظروفَ التي يتطلّبها عهدُ التجديد؛ الناشئ عن حضارة التقنية في هذا العصر.

من أجل ذلك وجد الإداريون الحاجةَ ماسّة إلى إنشاءِ مدارس حديثة من نوع آخر يتولّى خرّيجوها إدارة الدولة، ويقومون بوظائفها، فتمَّ فتحُ مجموعةٍ من هذه المدارس الحديثة ومنظومة منها عُرفت هذه المدارس الجديدة بالمكاتب، قامت بتدريس مناهج مختلفة عن مناهج المدارس القديمة، وأخذت هذه المدارس الجديدة تحتلّ مكان المدارس القديمة شيئاً فشيئاً، وتجذِبُ إليها طلاب العلوم، وتُحَوِّلُ إليها أنظار الإداريين والمثقّفين، وتُخرّج الإداريين والموظّفين.

❊ ❊ ❊

(٤)
أسباب جمود هذه المدارس وانكماشها

وهذه مجموعة من أسباب جمود هذه المدارس وانكماشها وتقهقرها:

١ ـ عدم الاهتمام بالتخصّص في العلوم.

٢ ـ اقتصار الدراسة على العلومِ الدينية والحقوقية، وإهمال العلوم العقلية والرياضيات والكونية.

٣ ـ فساد نظام التعليم وعدم محاولة إصلاحِه بوجهٍ سديد.

٤ ـ فساد نظامِ تولّي منصب التدريس.

٥ ـ ظهور التوريث في تولّي مناصب التدريس، يتولى الأبناء مناصب آبائهم بدون أهلية ولا جدارة لمنصب التدريس.

٦ ـ انتساب أهل العلم إلى عِليَةِ القوم من الباشوات والأغوات مما كان يؤدي إلى الإخلال بشروط الالتحاق بالمؤسّسات التعليمية، وبشروط مواصلة الدراسة فيها، وبشروط تولّي الوظائف ومناصب التدريس، وكان هذا وسيلة لتولّي غير أهل الكفاءة مناصب التدريس.

٧ ـ ومن أهم أسباب جمود هذه المدارس وانكماشها، أنه بعد دخول أوربا عصر الحداثة، وبعدَ ظهور العلوم التجريبية، وما يَتبعُها من ظهور الصناعة والتكنولوجيا على يدَيها، أخذ العلماءُ المسلمون والمتولّون لمناصبِ التدريس في المدارس الإسلامية في أرجاءِ الدولة العثمانية، وفي عواصمِها؛ أخذوا ينظرون إلى هذه الحداثة والعلوم المتعلّقة بها نظرة شُبهة وتشكك، فكانت نظرتُهم السيئةُ هذه سبباً لانصرافِهم عن العلومِ العقلية والرياضية والتجريبية، وداعياً لاقتصارِهم على العلوم الدِّينية فقط.

ولما عجز هؤلاء العلماء عن الجمع بين العلم والدِّين والتأليف بينهما، انصرفوا عن العلوم غير الدّينية، واقتصروا على العلوم الدّينية، فكان وضعهم هذا سبباً لتوقُّف التقدّم والخلود إلى الجمود ثم التدلّي إلى التقهقر والتأخّر.

٨ ـ ومن أهم أسباب قلّة الرغبة في المدارس الدينية، وعدم نجاح الجهود المبذولة لإصلاح هذه المدارس، أن السلطان محمود الثاني كان أنشأ مدارس حديثة على غِرار المدارس الأوربية، وأصدر قانوناً بكَونِ القسم الابتدائي من هذه المدارس إجباريّاً ومجاناً، فكانت النتيجة أن قلّت الرغبة في المدارس الشرعية، وقلَّ المتّجهون والمنتسبون إليها، ولم تَلْقَ جهود الإصلاح أذنًا صاغية إليها.

٩ ـ ومن أسباب قلّة الرغبة في المدارس الدّينية، وعدم الاهتمام بها ما كان ظهرَ في نظامِ إرادة الدولة وفي رجالاتها من التأثّر بالغرب، والسّير على منهجِه في السياسة، والحياة الاجتماعية، والثقافة، والعَلْمنة، وتغيّر ما كانت الدولة تستندُ إليه وتُعطيه الأولية من المبادئ السياسية والاجتماعية، فكان هذا سبباً لإهمالهم أمرَ هذه المدارس وأمرَ إصلاحِها وانصراف الناس عنها.

١٠ ـ ومن أهم أسباب انكماش هذه المدارس وتقهقرها انعدام الحرية العلمية، وتقرّر فكرة وجوب التقليد للسابقين، وغَلْق باب الاجتهاد، ففي أواخرِ الدولة العثمانية أصبحت الدعوةُ إلى فتح باب الاجتهاد تُهمة كبيرة لا تُغتَفر، واستولَت على عقولِ أهلِ العلم في المدارس الدّينية فكرة: «ما ترك الأول للآخر». وقد قال المحقّقون من أهل العلم: لا أضرَّ على العلم وتقدّمه من هذه الكلمة الظالمة.

❊ ❊ ❊

(٥)
العِلل التي تمكّنت في المدارس الإسلامية في العصور المتأخّرة

الغرضُ من عمل المدارس الشرعية يُجمَل في أمرين:

الأول: حفظُ العلوم الإسلامية أصولها وفروعها، مقصودُها وآليُّها، وتعلّمُ اللغة العربية، ونشر هذين الأمرين.

الثاني: تخريج علماء يُوكَلُ إليهم تعليم هذه العلوم المذكورة، ويقومون بوظيفة الإفتاء في النوازل والوقائع، ويتولّون حلَّ مشاكل المسلمين، والقيام بواجب الإرشاد والتبليغ للمسلمين وغير المسلمين، والحِفاظ على عقيدة المسلمين وأخلاقهم وأعمالهم، ودَفْع الشُّبَه والشكوك الواردة على النصوص الشرعية والأحكام الإسلامية العقدية أو العملية.

وكانت المدارسُ الإسلامية قد قامت بمهمَّتِها خيرَ قيام، خرّجت كبار المجتهدين والأئمّة، وربَّت خِيرةَ العلماء المحقّقين الذين قاموا بمهامهم خير قيام.

ثم مرّت هذه المدارس بأطوارٍ مختلفة كانت فيها بين الصحة والمرض، والتقدُّمِ والتأخُّر، والنهوض، والتقاعد، والإنتاج والعقم... إلى أن انتهى الأمر بها بعهدٍ تجمّعت فيه عِلَلُ ماضٍ طويل، وأخذت هذه العلل تعملُ عملَها في صرفِ هذه المدارس عن الإنتاج والتفكيرِ الحرّ المستقلّ، وعن تعلّم العلوم العقلية والكونية والرياضيات، مما له نفع في تكوين الفكرة الإسلامية وخدمة الشريعة وتنوير العقل، وتقدُّم الدولة والنهضة بها إلى المستوى الذي يجب أن تكون عليه من كونها مرهوبةَ الجانب. قال الله تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ [الأنفال:٦٠] **فإن تقدم الدول ونهضة الأمم لا يمكن تحققها - ولا سيما في العصور المتأخرة - إلا بالعلوم الكونية والرياضية. نعم قد دعى الإسلام إلى التقدم بالمجتمع الإسلامي والنهضة به، وأوجبه على الأمة، لكن هذا الواجب لا يتم القيام به إلا بالتقدم في العلوم الكونية والرياضية، وما لا يتم الواجب إلا به واجب. وأخيرا قد وصل الأمر في هذه المدارس إلى أن** أهملَت فيها بعضَ مهمات العلوم الإسلامية، وآلَ الأمـرُ بها إلى أن تغلّبـت عليـها العِلل والمبادئ التالية:

١ـ الاقتصار على العلوم الدينية، والانصراف عن العلوم العقلية والكونية والرياضية التي هي الأساس لتقدم الدول والنهضة بها، فكانت النتيجة أن بقيت الدولة العثمانية متأخرة، وصارت عالة على الدول الأوربية في وسائل التقدم وأسباب النهضة.

هذا هو نتيجة الاقتصار على العلوم الدينية، وأما العلوم الدينية نفسها:

٢ـ فقد تغلّبت فيها العناية بالمناقشات اللفظية، وتَتبُّعِ كلمات المؤلّفين في المتون والشروح والحواشي؛ على الروح العلميّة الموضوعية التي من شأنِها أن تَخدُمَ الفكرة بقطعِ النظر عمّا يتّصل بها من ألفاظ وعبارات.

٣ـ تغلّبت روحُ التقديس للآراءِ والأفهام التي دوَّنَها السابقون، وعدمُ الاكتراث بآراء اللاحقين مهما كانت قوية وسديدة.

٤ـ تغلَّبت عليها نزعة الاشتغال بالفروض والاحتمالات العقلية التي لا تقع، وما يتّصل بها من الأحكام، وأكثروا منها في العبادات والمعاملات.

٥ـ تغلّبت عليها نزعة الاشتغال باختراع الحِيَل التي يتحايل بها للتخلُّص من الحكم الشرعيّ مما يخالف مقاصد الشارع، وطردوا ذلك في كثير من أبواب الفقه، حتى جعلوا ذلك فنّاً من فنون الفقه، متجاوزين بذلك ما كان عليه السّلَف من إيجاد المخارج لدفعِ الضرر والمكروه عن الأُمة.

٦ـ تغلّبت رُوُحُ التعصّب للمذاهب؛ حتى وصل الأمر في ذلك إلى المناقشة في صحّة الاقتداء بالمخالف، وصحة تزوّج الحنفي بالمعتزلية والشافعية.

٧ـ تغلّبت الفكرةُ القائلة بعدم جوازِ تقليد غيرِ المذاهب الأربعة، مع أنّ مبنى صحّة التقليد هو اطمئنان النفس إلى صحة نقل المذهب الذي يُقلّد.

٨ ـ وتغلَّبت فكرةُ أنَّ من قلَّدَ إماماً من الأئمّة الأربعة فليس له أن يَعْبُرَ عنه إلى غيره من المذاهب في بعض المسائل إلا لضرورة.

٩ـ وتغلّبت فكرةُ حُرمة تَتبَّع الرّخص حتى جعلوا عدمَ تتبُّع الرخص شرطاً في صحّة تقليد الإنسان غير إمامه، قال ابن الهمام في «التحرير»: ولا يمنع منه مانع شرعي.

١٠ـ وقد ترتّب على هذه العِلل علّة خطيرة تَعُوقُ عن التفكيرِ الصحيح وتقدير الآراء بقيمتها العلمية، وهي خطّة المعاداة لطائفةٍ من العلماء نضجت عقولهم، وأدركوا أسرار الشريعة، فخالفوا الناس في كثيرٍ مما درجوا عليه، فصار العلماءُ المتعصبون يَحكُمون عليهم بأحكامٍ جائرة، ويُشكّكون في تديُّنِهم وإخلاصِهم وآرائهم، وجعلوا ذلك وسيلة إلى رفض آرائهم، وعدم الاعتداء بأفكارهم.

هذه هي التركة الـمُثقَلة التي خلّفتها العصور المظلِمة للمدارس الشرعية، وعن طريقِها سرت إلى الشَّعب، وكانت النتيجةُ الحتمية لهذه التركة أنْ وقفَت حركةُ التفكير في هذه المدارس، وحُرِمَت فضيلةُ البحث الحرّ، والتفكير المستقلّ، والنقد البنّاء.

وانحصرت مظاهر التبريز والنبوغ فيها بالقدرةِ على حلِّ المشاكل اللفظية في المتون والشروح والحواشي التي لا تعود على العِلْم بكبيرِ فائدة.

❊ ❊ ❊

(٦)
الجهود التي بُذِلَت لإصلاح هذه المدارس

وقد بُذِلَت جهودٌ كثيرةٌ لإصلاحِ نظام المدارس الدِّينية، وصدرت قوانين متعدّدة بهذا الغرض، وصدرت أوامر متعددة بهذا الصدد في عهد السلطان أحمد الثالث.

وقد انتقد هذا الفساد الذي داخل المدارس محمد بن أبي بكر المرعشي المشهور بسجاقلي زاده في كتابه «ترتيب العلوم».

وقد أصدر السلطان محمود الأول مرسوماً بهذا الصدد، وبلّغه شيخَ الإسلام مرتضى أفندي.

وأمر السلطان سليم الثالث بأن لا تصدُرَ الشهاداتُ والإجازات العلمية بدون اختبار.

وقد بذلَ شيخُ الإسلام حميدي زاده مصطفى أفندي وشيخ الإسلام دري زاده محمد عارف أفندي جهداً لأجل إصلاحِ المدارس، وكان على عهد السلطان سليم الثالث.

وقد بذل شيخ الإسلام محمد زين العابدين أفندي جهداً لإصلاح المدارس، لكنه لم ينجح في جهده هذا، وقد كان على عهد السلطان محمود الثاني.(**١٧٨٤-١٨٣٩م**).

وفي سنة **١٨٦٧م** شُكِّلت هيئةٌ علمية لأجل إصلاح المدارس، ووضَعَت منهجاً لذلك، لكنه لم يدخل حيّزَ التطبيق.

وفي سنة **١٨٦٩م** وضع منهج لإصلاح المعارف العمومية بدون تعرّض فيه لإصلاح المدارس.

وبعد ذلك جرت جهودٌ إصلاحية كبيرة على عهد السلطان محمد رشاد (١٩٠٩-١٩١٨م) على يد شيخِ الإسلام مصطفى صبري أفندي الأُرْكُبْلِي (١٨٦٧-١٩٢١م) وتحت إشرافِه استغرقَت هذه الجهود أربع سنين بدءاً من ١٤ شباط-١٩١٥م، وكان توليه لمشيخة الإسلام في أكيم ـ تشرين الأول ـ (١٩١٤م)، وبعد ذلك بشهر قامت الحرب العالمية، على أن الاقتراحات والمحاولات كانت قد بُدِئت في عهد السلطانِ عبد الحميد الثاني.

وتوجد من بين الوثائق العثمانية وثيقةٌ بخطّ الشيخ محمد عبده وضعَ فيها تصوُّرَه لإصلاح التعليم الديني في الديار العثمانية.

وفي سنة (١٩١٤م) صدرت لائحة بتطبيق نظام جديد للتدريس، ونُشِرت اللائحةُ في العدد الملحق من الجريدة العلمية بتاريخ ١٥ ذي العقدة ١٣٣٢هـ، الموافق لشهر أكيم ـ تشرين الأول ـ عام ١٩١٤م، وسمّيت هذه اللائحة بلائحة الأسباب الموجبة لنظام إصلاح المدارس، وبموجب هذا النظام تقرَّر جمعُ كافّةِ المدارس بإستانبول تحت اسم واحد وإدارة مُوحّدة، وتمّ تنشئة الطلاب في مدارس إستانبول كلّها وفقَ نفسِ الأصول والقواعد، ولما كانت هذه المدارس في إستانبول وهي مركز الخلافة الإسلامية؛ فقد تقرّر تسمية هذه المدارس بمدرسة دار الخلافة العلية.

وقد جاء في مقدمة هذه اللائحة التي أصدرَتْها مشيخة الإسلام العثمانية ما معناه: «المدارس الإسلامية من الواجب أن تكونَ محلّ غبطةِ علماء الأُمة ومثقّفيها وحكمائها، ومدار اعتزازهم، وموضع إعجابهم وتقديرهم، لكنها للأسف ـ بسبب إهمال الإداريين لها وعدم اعتنائهم بها ـ صارت بحالةٍ لا تُحمَد عليها، وصارت لا تَفي بحاجةِ العصر الحاضر، بل لم تستمرّ على أصالتها التي كانت عليها حين إنشائها، وهذه حقيقة لا تَقبَلُ الإنكار، من أجل ذلك قامت الحكومة العلية بإجراءِ إصلاحات

على هذه المدارس منذُ عِدّة سنوات خَلَت، ولكن من أجل أهمية هذه الإصلاحات، وما يجب أن تكون عليه من الشمول والسعة، لا زالت هذه الإصلاحات بحاجة ماسّة إلى المزيد، من أجل ذلك صدرت هذه اللائحة المتضمنة مبادئ وأصولاً ينبني عليها الإنهاض الواجب بهذه المدارس والتقدّم بها الذي لا مناص لها منه، حتى تستطيع هذه المدارس أنْ تقومَ بمهمّتِها من تنشئةِ جيلٍ من العلماء ينهضون بواجبهم، ويقومون بحاجة العصر، ويَفُون بمتطلّباته» انتهى.

وقد قامت هذه المدارس باسم مدرسة دار الخلافة العلية.

وقد بدأت الدراسة في هذه المدارس في **١٩** قاسم ـ تشرين الثاني ـ **١٩١٤**م.

وكان الالتحاق بهذه المدارس بعد الانتهاء من مدرسة الصبيان.

وقد قَبِلَت في أول سنة لها **٢٨٨٩** طالباً. ثم انخفض هذا العدد بسبب قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م).

وكان أهمّ ما قامت به هذه الجهود الإصلاحية إضافة العلوم التالية إلى نظام هذه المدارس: الكيمياء، الفيزياء، الرياضيات (الحساب والجبر)، العلوم الاجتماعية، اللغة الأجنبية، التربية البدنية.

وقد أُجرِيت: هذه الإصلاحات أولاً في المدارس الموجودة في إستانبول، على عزم أن تجري بعد ذلك رويداً رويداً في سائر مدن الدولة العثمانية، وتربط هذه المدارس بإدارة إستانبول.

ونصت المادة الثانية من هذا النظام على أن تكون المدرسة على ثلاث مراحل: القسم الأول: الفرعي، والقسم الثاني: الفرعي، والقسم العالي، وتكون مدة التدريس في كل مرحلة أربع سنوات، والذين يُتِمُّون القسم العالي بدار الخلافة،

أو الذين ينجحونَ في اختبارِ كافّةِ المواد المقرّرة في كل الصفوف من الخارج، ويرغبون التخصّص في العلوم الشرعية يلتحقون بالمدرسة الجديدة بداخل جامع السلطان سليمان، وسُمّيت هذه المدرسة بمدرسة المتخصّصين، ومدّة التدريس فيها سنتان.

ويبلغُ عددُ الساعات الأسبوعية المقرّرة للطلاب في مدرسةِ دارِ الخلافة أربعاً وعشرين ساعة.

وبعد عام من ابتداء التدريس أُجرِيَت بعض التعديلات على برنامج المقرّرات، وفُرِضَ على الطالب أن يختار لغة واحدة من بين اللغات الأجنبية التالية: الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الروسية، كما أُضيفَ إلى البرنامج مادة التربية البدنية.

وفي شهر نيسان من سنة (١٩١٦م) وُلّي الشيخ موسى كاظم مشيخة الإسلام، فقام في سنة (١٩١٧م) بتخفيض مدّة التدريس في مدرسة الخلافة العليّة إلى تسع سنين على ثلاث مراحل، كل مرحلة ثلاث سنوات، ورفع مدّة مدرسة المتخصّصين من سنتين إلى ثلاث سنين، وسماها المدرسة السليمانية، وأضاف إلى ما بعد الستة الأولى سنتَين تحضيراً للقسم العالي، وهو ثلاث سنين، فعاد المجموع مع مدرسة المتخصّصين إلى ما كان عليه على عهد شيخ الإسلام خيري أفندي أربع عشرة سنة.

ولكن هذه الجهود لم تنجح ولم تُؤتِ أُكُلها على الوجه المطلوب للأسباب التالية:

١ ـ عدم وجود أساتذة بالعدد المطلوب والمستوى اللازم.

٢ ـ عدم كفاية مقارّ الدراسة من العمارات.

٣ ـ عدم توفّر المال الذي يسدّ حاجة القيام بأمر هذه المدارس.

٤ ـ قيام الحرب العالمية الأولى.

٥ ـ انهيار الدولة العثمانية.

يقـول الشيخ أحمد حمدي آقسكي (١٨٨٧-١٩٥١م) في تقرير كتبه في تاريخ (١٨, ٠٢, ١٩٥٠) مُثنياً على مدارس دار الخلافة العلمية: «إن المناهج السقيمة المهملة للتعليم والتدريس التي استـمرّ منذ أَمَدٍ في المـدارس الإسلاميـة العثمانية؛ قد تحوّلت بعدَ عهد المشروطية إلى مناهج صحيحة جيدة علمية موائمة لحاجة العصر، وكان قد ترتَّب على ذلك تقدُّمٌ كبير في هذه المدارس، وكان قد أُضيفَ إلى مناهجها العلوم الكونية واللغات الأجنبية، لكن قيام الحرب العالمية الأولى قد حالَت دون تقدُّمِ هذه المدارس على الوجه المطلوب، وبالرغم من ذلك استمرّت هذه المدارس في عملها وقامت بواجبها حسب ما تيسّر لها من أسباب العمل والقيام بالواجب».

وفي المدة ما بين ١٩٠٨-١٩١٧م أُنشِئَت مدارس أخرى، منها مدارس الأئمّة والخطباء، ومدارس الواعظين في سنة ١٩١٣م، وكان مدة الدراسة في مدارس الواعظين خمس سنوات.

وفي سنة ١٩٢١م لما رأت السلطات في أنقرة أنّ مدارس دار الخلافة لم تَقُمْ بواجبِها التي أُنشِئَت لأجله لأسباب اقتضت ذلك؛ قاموا بإنشاء مدارس جديدة، وكان ذلك بمحاولة الإصلاح للمدارس القديمة، وسموا هذه المدارس باسم المدارس العلمية، وكان مدّة التعليم في هذه المدارس اثنا عشر سنة منقسمةً على مرحلتين، كلّ مرحلة ستّ سنين، يَدرُس الطالبُ في القسم الأول كلَّ يوم ثلاثة دروس، وفي القسم الثاني درسان، والعطلة يوم الجمعة.

وفي ٣ مارت ـ آذار ـ ١٩٢٤م أَقرَّت السلطات في أنقرة قانون توحيد التدريسات برقم ٤٣١، وكان ذلك بتكليف من واصف جنار نائب مدينة صاروخان

وسبعة وخمسين نائباً من زملائه، وكان وزير المعارف حينئذ إسماعيل صفا، وليس في صيغة هذا القانون ومواده السبعة كلمة واحدة تقتضي إغلاق المدارس الإسلامية، بل مقتضى هذا القانون أن تستمرّ هذه المدارس تحت إشراف الدولة مرتبطة بوزارة المعارف، ولكن بعد صدور هذا القانون بأيام ولي واصف جنار وزارة المعارف، فأصدر في **١٢** مارت ـ آذار ـ **١٩٢٤** م أي بعد صدور القانون بتسعة أيام تعميماً بإغلاق المدارس الإسلامية، فأُغلقَت بموجب هذا التعميم **٤٧٩** مدرسة في عدّة أيام.

وبهذه الطريقة قضت السلطات في أنقرة على المدارس الإسلامية وأنهَتْ أمرها[١].

❊ ❊ ❊

(١) وللتوسع في موضوع إصلاح المدارس يراجع:
Caner ARABACI, "Konya Medreseleri"; Kerim SARIÇELİK, "Konya'da Modern Eğitim Kurumları"; Yahya Akyüz, "Türk Eğitim Tarihi".

(٧)
المدرسة الإصلاحية النموذجية في مدينة قونيا

قد قام آل الشيخ الجليل محمد قدسي المعروف بمميش أفندي البوزقري بإنشاء مدرسة إصلاحية نموذجية في مدينة قونيا؛ حيث قام أحفاد الشيخ الثلاثة الشيخ زين العابدين، والشيخ رفعت، والشيخ أحمد ضياء بإنشاء هذه المدرسة، والقيام عليها وإدارتها. وكان ذلك في سنة ١٩٠٩م حيث أَنشأَت هذه الأسرة الفاضلة في هذه السنة مع مجموعة من علماء مدينة قونيا وفضلائها جمعية باسم: «الجمعية الخيرية لإصلاح المدارس الإسلامية في قونيا»، ثم أُنشئَت هذه المدرسة باسم هذه الجمعية، وكانت المدرسة تُعرَف بمدرسة عابدين أفندي نسبة للشيخ زين العابدين، وقد نشرت هذه الجمعية نظام مدرستها المكوَّنة من ٣٤ مادة، وتوجد نسخة منه في ككتبة إبراهيم حقي القونوي رقم الأرشيف (٣٥٠٥)، وقد أخذ هذا النظام Ca-ner Arabacı في كتابه Konya Medreseleri، واتّخذت هذه المدرسة من عمارة مدرسة «بكر سامي باشا» المعروفة بـ«باشا دائره سي» (Paşa Dairesi) مَقرّاً لعملِها وتدريسها، ولضيق العمارة وعدم مواءمتها للعمل المطلوب؛ قامت الجمعية بهدم العمارة وبناء عمارة مؤلّفة من دَورَين في محلّها، وقد اشتملت العمارة على ١٤ بيت وقاعة لإقامة الدروس ومسجد، وكان لهذه المدرسة أو لهذه الجمعية مطبعة، وكانت تُصدِرُ صحيفة باسم مشرق عرفان.

يقول علي علوي قروجو ابن إبراهيم بن ويس القونوي في مذكراته (١/ ص١٧١) فما بعدها: قال لي جدي الشيخ ويس: كان يوجد في مدينة قونيا رجال أفضل وأعلم وأعلى قدراً من أبيك وعمّك، ونحن مَدينون لفضيلة الشيخ ضياء أفندي، وشاكرون له على ما قام به من جهود كبيرة.

وذلك أن ضياء أفندي قد أسّس في مدينة قونيا مدرسة إصلاحية، وظّفني فيها أستاذاً للقراءة، ووظّف عمَّك أستاذاً للعربية والمحادثة، وأباك أستاذاً للصرف والنحو، وقد وَجَدت في هذه المدرسة من الروحانية ما لم أَجِدْه في أيّ مدرسة أخرى.

وقضية إصلاح المدارس فكرة شغلت عقول كثير من علماء الأُمّة وحكمائها، وصار يلهَج بها فضلاء الأُمّة من عهد السلطان محمود الثاني.

وكان الشيخ ضياء أفندي يقول: إنّ مهمّة إصلاح المدارس إنْ لم نَقُم بها سيقوم بها إما أُناس ليسوا بأهلٍ لها، أو أناس من غيرنا، بالله عليكم هلمّوا لِنَقُم بهذه المهمّة، ونبدأ بها قبل الآخرين.

وأقول: كان الشيخ ضياء أفندي ابن الشيخ محمد بهاء الدين ابن الشيخ مميش أفندي، وهو كان أحد خلفاء مولانا الشيخ خالد الشهرزوري النقشبندي، وأصله من مدينة بوزقر (Bozkır) الملحقة بقونيا.

وكان الشيخ محمد بهاء الدين خليفة لوالِدِه في الطريقة النقشبندية، هاجر إلى مدينة قونيا في سنة ١٨٦٢م، وجلس في مدرسة باشا دائرسي (Paşa Dairesi) شيخاً للطريقة خلفاً للشيخ محمد همت أفندي؛ الذي كان قد توفي قبل قُدومِه إلى قونيا، تُوفي شيخ محمد بهاء الدين سنة ١٩٠٦م، وكان ولادته ١٨٣١م.

وكان لمحمد بهاء الدين ثلاثة أبناء: زين العابدين، ورفعت، وضياء، وانتقل الشيخ محمد بهاء الدين من مدينة بوزقر (Bozkır) إلى قونيا، لتعليم أبنائه الثلاثة في مدارس مدينة قونيا العلوم الشرعية، وكان أكبرهم زين العابدين، وكان قد انتُخِب نائباً عن قونيا في عهد المشروطية في سنة ١٩٠٨م.

يقول علي علوي: وفي نفس الوقت أسَّس الشيخ ضياء ـ وكان أصغر الأخوة

وأذكاهم ـ بعد الاستشارة بأخويه والتشجيع منهما في مدينة قونيا مدرسة إصلاحية نموذجية.

وقد دَرَّسَ في هذه المدرسة كبارُ علماء مدينة قونيا وأعلام نبلائها.

وفي إحدى المرّات التي قَدِمَ فيها الشيخ زين العابدين ـ حين كان نائباً من إستانبول مقرّ الخلافة العلية ـ إلى مدينة قونيا؛ دعا الشيخُ ضياء نائبَ مدينة توقاد (Tokat)، وشيخَ الإسلام لاحقاً العلّامة المحقّق مصطفى صبري، ونائب مدينة أنطاليا المفسّر محمد حمدي يازرالألمالي؛ إلى ضيافته في مدينة قونيا حتى ينتفع الناس في قونيا بهما، وحتى يُشاهدا المدرسة الإصلاحية ويُبديا رأيهما فيها.

ويقول علي علوي أيضاً: سمعتُ الشيخَ مصطفى صبري في مصر (القاهرة) يقول: لما شاهدت المدرسة الإصلاحية في مدينة قونيا أُعجبتُ بها غاية الإعجاب، ووجدتُ فيها ما كنتُ أتصوّر تأسيسَه وأتمنّاه وأصبو إليه من المدرسة الإصلاحية، امتحنتُ الطلابَ فيها واختبرتُهم، فوجدتُهم ممتازين، لا يفكرون مثل ما يُفكّر طلاب المدارس القديمة، بل كانوا يفكّرون تفكيراً من نوع آخر، وكانوا يُجيدون بالإضافة إلى العلوم الشرعية وآلاتها، العلوم التالية: الحساب، الهندسة، التاريخ، الجغرافيا وغيرها.

ومن شدّة إعجابي بهذه المدرسة إنني عندما عُدتُ إلى إستنبول كان أول ما قلتُه لزوجتي: جهّزي إبراهيم كي نُرسِلُه إلى مدينة قونيا غداً، قالت زوجتي: ولماذا؟ كيف نرسل ابننا الوحيد إلى قونيا؟ كل الناس يُرسلون أبناءهم إلى إستنبول لتحصيل العلوم ودراستها، ولماذا نحن نُرسلُ ابننا إلى قونيا؟ وقد كان لنا بنتان وابن واحد، فأجبتُ على اعتراضِ الزوجة الذي يَبدو وَجيهاً بأنّ إستنبول لها ما لها من المكانة

والشهرة، لكنّي وجدتُ المدرسة التي كنتُ أتخيَّلها وأتمنى وجودَها في مدينة قونيا قد أنشأها الشيخ ضياء أفندي؛ وأرسلَنا إبراهيم إلى قونيا.

ويقول علي علوي رحمه الله: قد سألتُ مراراً مصطفى صبري أفندي عن هذه المدرسة الإصلاحية في قونيا واستمعتُ إلى انطباعه عنها، وقلتُ له مرّة: أراك مُعجباً بهذه المدرسة الإصلاحية، فما هو السبب في ذلك؟ فأجاب: عندما دخلتُ هذه المدرسة الإصلاحية شعرت كأنه أحاط بنفسي وروحي نورٌ أخضر، ووجدتُ المكان بالإضافة إلى كونِه مدرسةً وجدتُه خانِقاها ومحلّاً للتربية والتزكية والتصفية، ومقراً لتنشئة المجاهدين؛ هكذا وجدتُ تلك المدرسة.

يقول مصطفى صبري: سألتُ الشيخ ضياء منفرداً، ماذا تدفعون لهؤلاء الأساتذة والمدرسين يا شيخ ضياء؟ فأجاب: يا شيخنا ماذا عسى أن ندفع؛ نحن عاجزون محتاجون إلى المساعدة، نحن لا نأخذ شيئاً من أحد حتى ندفع لهؤلاء الأساتذة! كلّهم يأتون لتنشئة أولاد هذه الأُمة وتربيتِهم حِسبةً لوجهِ الله تعالى.

حينما قال الشيخ ضياء هذا الكلام فهمتُ السرَّ فيما كان يتلألأ على وجوه هؤلاء المشايخ وسيماهم من النور.

واستمرّ الشيخ ضياء مشيراً إلى جدِّك الشيخ ويس قائلاً: هذا الشيخ يُقيم في المحلّة الفلانية، وهو إمام في أحد المساجد، وهو أبو هذَين الشيخَين، عرضتُ عليه تدريسَ القراءة والتجويد للطلاب، فوافق، وهو يتردّد إلى المدرسة راجلاً من مسافة ألفي متر تقريباً. انتهى.

توفي الشيخ أحمد ضياء في مكة المكرمة في سنة **١٩٢٥**م، ودفن في المعلى، وكان من المطلوبين من قِبَلِ السلطات في تركيا الحديثة.

أما عن مدّةِ الدراسة في هذه المدرسة، وعدد الطلاب فيها فقد ورد في نظامها ما يلي:

«المادة الثامنة: أن لا يتجاوز عدد الطلاب فيها أربعين طالباً»، لكننا نجد فى تاريخ هذه المدرسة أنه قد تجاوزعدد الطلاب فيها في بعض السنين إلى أربعٍ وخمسين طالباً.

«المادة العاشرة: أن لا تنقص مدّة التعليم فيها عن عشر سنين».

لكن هذه الشجرة الطيبة المرجوّة التي نيطت بها آمال التغيير والإصلاح والتجديد لم تُؤتِ أُكُلها على الوجه المرجوّ، وقضت عليها السياسة الجائرة، وهي في نهاية السابعة من عمرها قبل أن يتخرّج منها أوّل فوج من طلابها، فأُغلِقت في سنة (١٩١٧م) فى شهر أيلول من قِبَل «حزب الاتحاد والترقي» الذي كان قد أخذ بزمام السلطة في أواخر الدولة العثمانية، وكان إغلاقُها بسبب الاختلاف بين هذا الحزب المعادي للخلافة العثمانية، وحزب (الحرية والائتلاف) الموالي للخلافة العثمانية؛ حيث كان القائمون على هذه المدرسة من الموالين للخلافة والمؤيّدين لحزب الحرية والائتلاف، وكان الشيخ زين العابدين أحدُ نوّاب هذا الحزب في البرلمان عن مدينة قونيا، وكان أحد المؤسّسين للحزب.

توفي الشيخ زين العابدين في المدينة المنورة في سنة (١٩٤٠م) وكان في قائمة المئة والخمسين المطلوبين الذين حُكِمَ عليه بالإعدام من قِبَلِ السلطات في تركيا.

وكان الشيخ زين العابدين خليفةً لوالده في الطريقة النقشبندية.

وأما أخوه الشيخ رفعت فقد أُعدِم في قونيا في سنة (١٩٢٠م) إثر حادثة دلي باش متَّهماً بضلوعه فيها، ودُفِنَ في مقبرة حجي فَتَحْ قريباً من قبرِ والده.

وبوفاة الشيخ زين العابدين يكون التاريخ قد أرخى سِتاره على حياة هذه الأُسرة الكريمة الماجدة المباركة المجاهدة الصابرة؛ التي وَرِثَت المجدَ والمكارم كابراً عن كابر، والتي قضت حياتها في خدمة الإسلام، ونشر الدعوة، وبثّ العلوم الإسلامية وتدريسها، وفي الذَّودِ عن حياض الإسلام والدفاع عن حقائق، والصراع مع أعدائه والوقوف في وجه مناوئيه، والصمود في ذلك صمود الأبطال، فكانت هذه الأسرة بحقٍّ ممّن ينطبقُ عليهم قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] (١)

❊ ❊ ❊

(١) ومَن أراد التوسّع في هذا الموضوع فليراجع كتاب:
Caner ARABACI, "Konya Medreseleri"; Kerim SARIÇELİK, "Konya'da Modern Eğitim Kurumları"; Yahya Akyüz, "Türk Eğitim Tarihi".

نظام المدرسة الإصلاحية في مدينة قونيا

وقد أردنا أن نورد هنا نظام المدرسة الإصلاحية في مدينة قونيا، كي يكون مثالا يُحتذى، ويَنتفع به القائمون على المدارس الإسلامية، وهو ما يلي:

١ـ الجمعية لا تأخذ أي أجرة للتعليم من الطلاب المقبولين في المدرسة.

٢ـ الغاية من التعليم الحصول على مرضاة الله تعالى.

٣ـ لا بد للملتحقين بالمدرسة أن لا تتجاوز أعمارهم الخامسة عشرة.

٤ـ الطالب لا بد وأن يكون سليما من الأمراض.

٥ـ يعمل امتحان للقبول بالمدرسة، ويقدم الحفاظ للقرآن على غيرهم ويرجحون.

٦ـ تشكل لجنة الامتحان من خمسة أعضاء من الأساتذة والمدرسين.

٧ـ الطلاب المقبولون بالمدرسة لا بد أن لا يتجاوز عددهم أربعين طالبا.

٨ـ مدة الدراسة في السنة لا تقل عن ثمانية أشهر ما عدا أيام العيد والعطل الرسمية، وفي العطلة الدراسية يوجه الطلاب للأمور النافعة حفظا على أخلاقهم.

٩ـ يقبل الطلاب من خارج الفصل الدراسي كمستمعين للدروس، بشرط اتساع المكان في الفصل.

١٠ـ مدة التعليم الكاملة لا تقل عن عشر سنوات.

١١ـ تخصص غرفة للطالب بعد مضي أربع سنوات من التعليم تحت إشراف المدرسين.

١٢ـ لا بد للمدرسة من مدير يراقب جميع المدرسين في تنفيذ النظام المدرسي، بالإضافة إلى وجود مدرس دائم في المدرسة، وظيفته إدارة المدرسة، ومتابعة تطبيق نظامها.

١٣ـ تنظيف المدرسة وترتيبها من وظيفة الطلاب بالتناوب.

١٤ـ المدرِّس الدائم هو المسؤول عن تنظيف المدرسة وترتيبها وتنظيمها ورعاية صحة الطلاب فيها، والتنظيف يكون يوميا وأسبوعيا.

١٥ـ المدرس الدائم مسؤول عن كل أسباب الحريق، ولذلك لا يخرج المدرس الدائم من المدرسة إلا بعد التأكد من سلامة المدرسة من أسباب الحرائق وغيره.

١٦ـ الطالب الذي لا يستمر على الدراسة يفصل، ويغرم ولي الطالب المفصول بالمبلغ الذي التزم بدفعه عند فصل الطالب ووقع على سنده بذلك في بداية الدراسة.

١٧ـ المدرس الدائم هو المسؤول عن تفقد الطلاب، ومتابعة حضورهم ودراستهم والتزامهم بنظام المدرسة ورعايتهم للأخلاق والآداب الإسلامية.

١٨ـ يفصل الطالب بسبب التخلف عن الدراسة.

١٩ـ المدرس الدائم يحضر قبل موعد حضور الطلاب بنصف ساعة.

٢٠ـ وأثناء الفسحة يراقب المدرس الدائم الطلاب، ثم يتوضؤون في الوقت المناسب ويذهبون إلى المسجد مع رعاية السنة والآداب.

٢١ـ يركز على الطلاب في رعاية السنة في حياتهم اليومية والمعاشرة فيما بينهم، ويسلم الطلاب على المدرسين، والصغير على الكبير في أدب واحترام.

٢٢ـ يستمع الطالب الدرس في هدوء واحترام، ويهتم أشد الاهتمام بالدروس، ولا يأتي بما يخالف الآداب ويخل بها.

٢٣ـ الطالب لا يجاوز درسَه قبل أن يفهمه، ومن حق الطالب إذا لم يفهم الدرس مطالبة إعادة الدرس.

٢٤ـ ومن حق الطالب أن يسأل ويناقش أثناء الدرس بعد أن يستأذن من المدرس، وإذا لم يأذن الأستاذ يكتب أسئلته ثم يسئله بعد انتهاء الدرس.

٢٥ـ يُرَغَّب الطالبُ في البحث والإلقاء، فيجب على كل طالب بعد السنة الأولى من الدراسة أن يلقي ما فهمه من الدروس، ويعرض أفكاره الناتجة عن البحث على أساتذته، وعليه أن يقوم بإلقاء ما توصل إليه مما كلف به من قبل المدير من البحث على الطلاب الآخرين.

٢٦ـ على الطلاب أن يظهروا حسن السيرة في كل مكان، ويكونوا أسوة حسنة أينما تواجدوا.

٢٧ـ ينصح الطلاب بالامتناع من ارتكاب ما يخل بالأدب في أي مكان كان، وعلى المدرسين المنسوبين إلى المدارس الإصلاحية الاعتناء بتقديم النصائح للطلاب.

٢٨ـ إذا لم يكن هناك حاجة ماسة لا يخرج الطلاب من المدرسة.

٢٩ـ ينبغي أن لا يقل مدة كل درس عن ساعة.

٣٠ـ يعيد المدرِّس الدائم الدروس ويذاكر الطلاب وفق جدول الدروس.

٣١ـ في أثناء كل أسبوع يقوم الطلاب بتبييض ما كتبوه من المذكرات والحواشي في ذلك الأسبوع وينتهون من التبييض يوم الخميس، والمدرسون الدائمون يراقبون

هذه الأمر ويتابعونه، والطالب الذي تخلف عن الحضور لسبب مقبول يتم متابعة ما كتبه يوم حضوره المدرسة.

٣٢ـ يجب الابتعاد عن الاعتماد على الحفظ فقط.

٣٣ـ يقوم الطالب بأداء واجباته بصدق وإخلاص.

٣٤ـ يحدد تاريخ الامتحان بشكل توافقي (ديموقراطي)، ففي بداية السنة ونهايتها تجتمع الإدارة، وأعضاء التدريس، ويختارون بالأغلبية لجنة الامتحان، وهناك امتحان خاص في نهاية كل ثلاثة أشهر، وامتحان عام في نهاية السنة.

٣٥ـ كل عضو من أعضاء الامتحان يعطي الدرجات للطالب في الامتحان الشفوي على حسب أجوبة الطالب، ويسجل ذلك في الجداول الموجودة بيده، وكذلك يدقق كل أوراق الأجوبة التحريرية، و يعطي الدرجات للطالب على حسبها ويوقع عليها، وبعد ذلك يقدمها للمدير.

٣٦ـ المدير يعيد الأوراق للمدرسين، ويقوم المدرسون تحت إشراف المدير ببيان متوسط نتائج الامتحانات على أن تسلم للإدارة للإعلان.

٣٧ـ كل من حصل على ثلثين من مجموع درجات الدروس بشرط أن لا يقل درجاته في كل مادة من المواد عن **٥** درجات ينجح، ومن حصل على أقل من ذلك يرسب.

٣٨ـ كل من رسب سنتين متتاليتين يفصل، ويستثنى من ذلك من كان له عذر مقبول في التخلف مقدار نصف سنة.

٣٩ـ الذين تخلفوا عن الامتحان بغير عذر مقبول لدى الإدارة يحرمون من الامتحان، والذين عندهم عذر مقبول لهم حق الامتحان.

٤٠ـ كل من تخلف عن الدراسة نصف سنة بأي سبب من الأسباب لا يدخلون الامتحان.

٤١ـ كل من يخالف نظام المدرسة وتعاليم الإدارة، أو يأتي بما يخل بالآداب وشرف العلم، أو يكسل في التعلم ويهمل الدروس، يعاقب على حسب ما قام به وبما يناسب ذلك بالتقريع والتوبيخ السري، وتبديل الموقع (تنزيل الرتبة)، والتوبيخ العلني أمام مجلس الإدارة وفي حضورها، والفصل من الدراسة.

ويكون العقاب بالتقريع والتوبيخ السري، وتنزيل الرتبة من قبل المدرسين، وبالتوبيخ العلني أمام مجلس الإدارة، وبالفصل من الدراسة من قبل الإدارة.

٤٢ـ وفي نهاية السنة الأخيرة، يجاز الطلاب الناجحون والحاصلون على قراءة المنهج بالكامل، يجيزهم الإجازة العلمية المسندة على الأسلوب القديم أساتذتهم في العلوم النقلية والعقلية من خلال حفل، وتسلم الإجازة بعد ذكر المواد المقروءة على هؤلاء الأساتذة وعلى غيرهم وذكر الدرجات التي حصل عليها الطلاب، وبعد ختم الأساتذة عليها والتصديق عليها من الإدارة تسلم للطلاب.

ومما لم يرد ذكره في هذا النظام لكننا سمعناه من أفواه كثير ممن له معلومات صحيحة عن هذه المدرسة: أن المحادثة في هذه المدرسة كانت باللغة العربية وقد كانت الإدارة تركز على هذا الأمر وتشدد فيه، وكان المدرس الدائم يعاقب الذين يخالفون ويتحدثون باللغة التركية. كان يعاقبهم بتقليد عنق المخالف قلادة قد أعدت هذه القلادة لذلك، وكان يتناوب تقلدها المخالفون.

* * *

الفصل الرابع

عن المدارس الإسلامية في شرق تركيا

وفيه:

١ـ صفتها العامة.

٢ـ العلوم التي تدرس في هذه المدارس.

٣ـ مدة تخرّج الطالب وصفتُها التنظيمية.

٤ ـ عمارات المدارس.

٥ ـ الحالة المعيشية والموارد.

٦ ـ عدد الطلاب وعدد المدارس.

٧ ـ الشيوخ ومستواهم العلمي

٨ ـ جوانب الضعف في هذه المدارس.

٩ ـ قائمة الكتب التي تُدرس في مدرسة الفلاح في قونيا، والمنهج المتبع فيها.

١٠ ـ محاولة الإصلاح والتجديد للمدارس الإسلامية في شرق تركيا.

الفصل الرابع
عن المدارس الإسلامية في شرق تركيا

قد كنت كتبتُ تقريراً عن المدارس الإسلامية الأهلية في تركيا عامة، وعن مدرسة الفلاح في مدينة قونيا خاصة، فرأيتُ من المناسب أن أضعَ هذا التقرير هنا، وهو ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَن اهتدى بهُداه.

أما بعد: فمِن أجلِ أنّني متخرِّجٌ من المدارس الإسلامية في شرق تركيا، وأعيش حاليّاً مدرّساً ومديراً لإحدى كُبرياتها، من أجل ذلك طلب منّي بعضُ الإخوة النشطين في خدمة الإسلام أن أكتبَ لهم تقريراً عن هذه المدارس ونشاطها وحالتها العامة، فكتبت عنها ما يلي:

١ ـ صفتُها العامة:

هذه المدارس أهلية داخلية محظورة قانونيّاً من قِبَل السلطات منذ الانقلاب الكمالي، ولكنّها بالرغم من ذلك لا تزالُ تُواصِلُ نشاطَها وتُخرّجُ العلماء، والمتخرّجون منها هم معظم الذين يُمثّلون صفة العلماء في تركيا، ويحمل المتخرّجون منها إجازات من الشيوخ، وهذه الإجازات غير مُعترَف بها لدى الحكومة، لا تساوي ولا شهادة المدارس الابتدائية؛ من أجل ذلك لا تُولّيهم الحكومة أي وظيفة رسمية، لا الإمامة

ولا الأذان ولا قيامة المسجد ما لم يَحصلُوا على شهاداتٍ من المدارس الحكومية.

والمتخرّجون من المدارس الحكومية ـ مدارس الأئمّة والخطباء وكلّيات الإلهيات ـ بالرغم أنهم في مستوى منخفِض في العلوم الإسلامية؛ هم الذين تُوَلِّيهم الحكومة الوظائف الدينية الرسمية.

٢ ـ العلوم التي تُدرَّس في هذه المدارس:

العلوم التي تُدرَّس في هذه المدارس بصفةٍ عامّة هي العلوم الإسلامية من آلية، وأصلية، وفرعية، من الصرف، والنحو، والمنطق، والمعاني، والبيان، والبديع، وأصول الدِّين، وأصول الفقه، والفقه الحنفي، والشافعي، والتفسير، والحديث متناً، وأما علومُ الحديث ولا سيما المصطلح فمهملةٌ في هذه المدارس، والعلم الذي له مزيدُ أهمية فيها هو علم النحو.

٣ ـ مدّة تخرّج الطالب وصفتُها التنظيمية:

مدّة تخرّج الطالب تتفاوت من طالب لآخرَ حسب تفاوتِهم في الذكاء والنشاط، وتتراوحُ بين ثمان سنين وعشرِ سنين، والطالبُ غيرُ مُلزَم ولا ملتَزِمٍ بمواصلة دراستِه في مدرسة معيّنة ولدى شيخ واحد، ويتجوّلُ بكلِّ حرية في هذه المدارس من مدرسة لأخرى حسب رغبتِه وقبولِ الشيوخ إياه، من أجل ذلك تبقى هذه المدارس غير منظّمة، وتبقى الدروس فيها فردية، لكلِّ طالبٍ دَرْسٌ على حِدة، وربما يشترك عددٌ من الطلاب في درسٍ واحد أو دروس، وربما تكون في الحلقات.

٤ ـ عمارات المدارس:

كانت الأغلبية العظمى من هذه المدارس ليس لها عمارات خاصة، وإنما كان

الطلاب يُقيمونَ ويُواصلون الدراسة والنشاط العلمي في المساجد ومرافقها، وربما كانت العمارات المتواضعة في رحاب المساجد، ولكن الوضع قد تغيّر الآن فصار القائمون على المدارس يَبنونَ لها العمارات الجيدة على الطِراز الحديث.

٥ ـ الحالة المعيشية والموارد:

الحالة المعيشية منخفِضة، وليس للمدارس أيّ مورد سوى إحسان المحسنين، كانت الحالة فيما قبل أن يذهب كلُّ طالب إلى بيت مُعيّن من بيوت القرية، ويأخذ طعامه منه، ويأتي به إلى المدرسة، وهكذا في كلّ صباح ومساء، ثم يجمع الطلاب ما أتوا به، ويتناولونه معاً.

وأما الآن فقد تغيّر الوضعُ فيها إلى أن يتبرّعَ المحسنون إما بالنقود أو بالمواد الغذائية للمدرسة، والطلاب أنفسُهم يتناوبون في صنع الطعام وطهيه في المدرسة، وكذلك يتناوبون في غسل الصحون وكلّ خدمات المدرسة، وقد يكون فيها طبّاخ يقوم بهذا الأمر.

٦ ـ عدد الطلاب وعدد المدارس:

أما عدد المدارس في شرق تركيا فلا أحد يستطيع تحديده بشكل دقيق؛ لأنها منتشرة في القرى والمدن.

وأما عدد الطلاب فيختلف من مدرسة لأخرى، فمنها ما تَضمُّ ستّاً أو سبعة من الطلاب ومنها ما تَضمُّ عَشرة، ومنها ما تَضمّ العشرين أو الخمسَة والعشرين، وقليل منها التي تَضمّ أكثر من ذلك، والأغلبية العظمى منها يتراوح عددُها بين العشر والعشرين، وأما مدرستنا نحن ـ مدرسة الفلاح ـ في مدينة قونيا فتضمّ أكثر من مئة طالب.

٧ ـ الشيوخ ومستواهم العلمي:

الشيوخ والأساتذة كلّهم من المتخرّجين من نفسِ المدارس، ومستواهم العلمي يختلف، ويوجد فيهم كبار العلماء، والأغلبية العظمى منهم مُقتصِرون على تدريس نفسِ المواد والكتب التي كانوا درسوها وقرؤوها لا يتجاوزونها، وغالب الكتب التي يَدرسونها كتب دقيقة ومحقّقة، يحتاج مدرّسُها إما إلى مزيدٍ من الممارسة، أو إلى مزيد من الاستعداد والذكاء الحادّ.

والدارج في هذه المدارس أنَّ الطالب الحاصل على مستوى علمي جيّد يتولّى تدريس الطلاب المبتدئين، وربما المتوسطين، والشيوخ متبرّعون في تدريسهم، لا يريدون عليه جزاء ولا شكوراً، وهم الذين يُديرون المدارس.

٨ ـ جوانب الضعف في هذه المدارس:

هذه المدارس مما لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان أنها أفضل مَعين للإسلام، وللعلوم الإسلامية، وللأخلاق والآداب الإسلامية في تركيا. ويعني الاهتمام بها الاهتمام بالإسلام في الصميم، لكنه بالرغم من ذلك لا تخلو هذه المدارس عن جوانب ضعف عديدة، وتحتاج إلى الإصلاح والتجديد.

منها: مزيد الاهتمام بالعلوم الآلية، ولا سيما النحو؛ حتى إنّ هذه العلوم قد تحوّلت عن آلية إلى قصدية.

ومنها: تدريسُ كتبٍ منخفضة المستوى وغير محقّقة، وكتبٍ رفيعة المستوى؛ لكنها لا تعود على الطالب بفائدةٍ تُذكَر.

منها: إهمال علوم كان ينبغي ألا تُهمَل، ولا سيما علوم الحديث، وهذا عندي من أعظم عيوبها.

ومنها: عدم الاهتمام بالعلوم الشرعية من التفسيرِ والفقهِ وأصولِ الفقه وغيرها؛ فإنّ هذه العلوم غير مهملة فيها لكنها لا يعتنى بها كما ينبغي.

ومنها: إهمال التكلُّمِ باللغة العربية، وعدم قدرة الطلاب وأغلب الشيوخ على التكلّم بها بطلاقة.

ومنها: إهمالُ الإنشاء، والكتابة العربية، وعدمُ قدرتِهم على الكتابةِ إلا بصعوبةٍ وركاكة ومستوى منخفض.

هذا. واللهَ الكريم أسأل أن يُوفّقنا إلى إصلاح هذه المدارس التي هي مَعين الإسلام، وإلى تجديدها، وإلى توسيع نطاق نشاطها، إنه سميع مجيب.

❊ ❊ ❊

(٩)
قائمة الكتب التي تُدرَّس في مدرسة الفلاح في قونيا، والمنهج المتبع فيها

هذه المدارس ليست مصفّفة إلى صفوف، ولا مُنقَسِمة إلى مراحل محدّدة، فإنّ وضعها كما ذكرنا لا يسمح بذلك، والمتبعَ فيها هو منهج محدّد، وقائمة كُتُب متدرّجة، هذا المنهج متّبع فيها منذ مئات السنين، وأصل المنهج منهج جيد جداً، فإنّه عبارة عن قائمة من الكتب تبتدئ بالكتب الابتدائية السهلة المختصرة، وتتصاعَدُ متدرِّجة بحيث يكون كلّ كتاب تمهيداً لما فوقه من كتب العلم الذي هو فيه، إلى أن تنتهي القائمة بالمرحلة العالِية ـ حسب التعبير الحديث ـ والأغلبية العظمى من هذه الكتب كُتب محرّرة رفيعة المستوى، من تآليف علماء أجلّاء ذوي مكانة مرموقة في التاريخ الإسلامي، وقلّة من هذه الكتب ليست في هذا المستوى، والمتبع في هذه المدارس حِفظُ غالب المتون التي تُدرَّس هي أو شروحها.

ونحن في مدرستنا ـ مدرسة الفلاح ـ في مدينة قونيا في قلب تركيا قد أجرينا على هذا المنهج التجديد والتعديل، وجعلنا المنهج بحيث يكون أقربَ إلى الوفاء بحاجة المسلمين، ولا سيما في هذا العصر الذي اشتدّت الحاجة فيه إلى سعة دائرةِ علمِ علماء المسلمين، ومسّت الحاجة فيه إلى تنوّع علومهم وثقافتهم العصرية والإسلامية، وهذه أسماء الكتب المتدرّجة في هذه القائمة حسب تعديلنا مرتبة:

١ ـ «**الأربعون النووية**»: للإمام النووي.

٢ ـ «**قصص النبين للأطفال**»: لأبي الحسن الندوي.

٣ ـ «**مختصر القدوري**»: لأحمد بن محمد البغدادي الحنفي القدوري.

(للأحناف).

٤ـ «**غاية الاختصار**»: للقاضي أبي شجاع. (للطلاب الشافعية).

٥ـ متن «**بدأ الأمالي**»: في العقيدة – أو «**جوهرة التوحيد**»: للّقاني.

٦ـ «**نور العيون في تلخيص سيرة الأمين المأمون**»: لابن سيّد الناس.

٧ـ «**القراءة الراشدة**»: لأبي الحسن الندوي.

٨ـ «**الجواهر الكلامية**»: للشيخ طاهر الجزائري.

٩ـ «**متن الأمثلة**»: في الصرف.

١٠ـ «متن البناء»: في الصرف.

١١ـ «متن المقصود» أو «متن العزي»: للزنجاني في الصرف.

١٢ـ «العوامل المائة»: لعبد القاهر الجرجاني ـ أو «العوامل المائة»: للبركوي.

١٣ـ «**الظروف**»: وهو كتاب جيد يحتوي على أهم أحكام الظروف لملا يونس الأرقطيني من علماء الأكراد كتبه باللغة الكردية، وعربه بعض العلماء.

١٤ـ «**التركيب**»: لملا يونس الأرقطيني، وكتبه باللغة الكردية أيضا، وعربه بعض العلماء.

١٥ـ «**متن الآجرومية**»: للصنهاجي وشرحها «**التحفة السنية**»: لمحمد محيي الدين عبد **الحميد**.

١٦ـ «**متممة الآجرومية**»: للحطاب الرعيني.

١٧ـ «**شرح قطر الندى وبل الصدى**»: لابن هشام.

١٨ـ «**شرح العزي في الصرف**»: للتفتازاني.

١٩ـ «**شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**»: لابن هشام.

٢٠ـ «**سيرة خاتم النبيين**»: لأبي الحسن الندوي.

٢١ـ «**قواعد الإعراب**»: لابن هشام.

٢٢ـ «**الكافية**» **إلى المجرورات**: لملا خليل الإسعردي.

٢٣ـ «**البهجة المرضية في شرح الألفية**»: للإمام السيوطي،وعليه حاشيتنا القيمة المسماة بـ«**التحقيقات الوفية لما في البهجة المرضية من النكات والرموز الخفية**».

٢٤ـ «**الفوائد الضيائية**»: شرح ملا جامي على «**كافية ابن الحاجب**».

وهنا ينتهي علم الصرف والنحو.

٢٥ـ «**تهذيب سيرة ابن هشام**» لعبد السلام هارون – أو «**نور اليقين**»: للخضري.

٢٦ـ «**ملتقى الأبحر**»: للحلبي، و«**الهداية**»: للمرغيناني، في الفقه الحنفي.

٢٧ـ «**مقدمة الحضرمي**»: لبافضل الحضرمي، في الفقه الشافعي.

٢٨ـ «**عمدة السالك وعدة الناسك**» لابن النقيب في الفقه الشافعي.

٢٩ـ «**منهاج الطالبين**»: للنووي، في الفقه الشافعي.

٣٠ـ «**الفوز الكبير في أصول التفسير**»: لشاه ولي الله الدهلوي.

٣١ـ «**مختصر الإتقان في علوم القرآن**».

٣٢ـ قطعة من: «**تفسير الجلالين**»: ومن: «**تفسير البيضاوي**» أو من: «**تفسير النسفي**».

٣٣ـ «**متن البيقونية**» **مع** «**شرحها**»: لعبد الله سراج الدين.

٣٤ـ «**التقريب**»: للنووي، في أصول الحديث.

٣٥ـ «**نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر**»: لابن حجر العسقلاني، مع حاشيتنا عليها «**النكت الغرر**».

٣٦ـ «**ثلاث رسائل علمية**»: لمحمد صالح الغرسي.

٣٧ـ «**السنة النبوية حجية وتدوينا**»: لمحمد صالح الغرسي.

٣٨ـ «**تحفة المريد على جوهرة التوحيد**»: للباجوري مع حاشيتنا المطولة عليه: «**التحرير الحميد لمسائل علم التوحيد**».

٣٩ـ «**الخريدة البهية**» **في علم العقائد، وشرحها**: كلاهما للشيخ أحمد الدردير.

٤٠ـ «**منهج الأشاعرة في العقيدة بين الحقائق والأوهام**»: لمحمد صالح الغرسي.

٤١ـ «**عقيدة الإمام الأشعري أين هي من عقائد السلف**»: لمحمد صالح الغرسي.

٤٢ـ «**رياض الصالحين**»: للنووي.

٤٣ـ «**علم الميراث**»: وقد كتبنا فيه مختصرا جامعا وهو الذي نُدرِّسه للطلاب.

٤٤ـ «**إيساغوجي**»: للأبهري، في علم المنطق.

٤٥ـ «**شرح إيساغوجي**»: لإسماعيل الكلنبوي، مع حاشيتنا عليه.

٤٦ـ «**اللمع في علم الوضع**»: لملا أبي بكر رستم الصوري.

٤٧ـ «**شرح السمرقندي على رسالة الوضع**»: للقاضي عضد الدين الإيجي، مع حاشيتنا عليه.

٤٨ـ «**متن الفريدة**»: في علم البيان، لأبي الليث لسمرقندي.

٤٩ـ «**شرح العصام على الفريدة**»: في علم البيان، مع حاشيتنا القيمة عليه.

٥٠ـ «**شرح الخبية في علم المناظرة**»: وهي منظومة قيمة لملا خليل الإسعردي، والشرح لمحمد صالح الغرسي.

٥١ـ «**الإجابة الباهرة على أسئلة تتعلق بمن يسب الصحابة الطاهرة**»: لمحمد صالح الغرسي.

٥٢ـ «**فصل الخطاب في مواقف الأصحاب**»: لمحمد صالح الغرسي.

٥٣ـ «**قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين**»: للحطاب، ولنا عليه تعليقات، وقد قدمنا له بمقدمة مطولة.

٥٤ـ «**مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول**»: للتلمساني، ولنا عليه تعليقات تحل عباراته المغلقة.

٥٥ـ «**أصول الفقه**»: لعبد الوهاب خلاف.

٥٦ـ «**الوافي بما في الصحيحين**»: لصالح أحمد الشامي.

٥٧ـ «**إحكام الأحكام**»: **لابن دقيق العيد، شرح** «**عمدة الأحكام**»: للمقدسي، وقد كتبنا عليه تعليقات تفك عباراته الغامضة.

٥٨ـ «**مختصر المعاني**»: للتفتازاني، مع حاشيتنا عليه.

٥٩ـ «**المسامرة**»: لابن أبي شريف، وهي شرح «**المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة**»: لابن الهمام، مع حاشيتنا المهمة عليه: «**بدر التمام في تحقيق مهمات قضايا عقائد الإسلام**».

٦٠ـ «**شرح المحقق المحلي على جمع الجوامع**» **في أصول الفقه**: لتاج الدين السبكي.

وبجانب هذه القائمة قد تدرَّس بعض الكتب الأخرى في مختلف العلوم الإسلامية، ولا سيما الدراسات الإسلامية المعاصرة والثقافة الإسلامية.

وهنا تنتهي المادة، ويحصل الطالب على الإجازة العلمية والشهادة العالمية من الشيخ الذي أنهى الطالبُ المادة لدَيه.

❊ ❊ ❊

(١٠)
محاولة الإصلاح والتجديد للمدارس الإسلامية في شرق تركيا

أَوَّلُ مَن نعلم أنه حاول إصلاح هذه المدارس وتجديدَها في شرق تركيا هو الإمام الملهَم الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، حيث حاول إنشاء سلسلة مدارس ودور للفنون في شرق تركيا في المناطق الكردية باسم مدرسة الزهراء، وقد كتب تقريراً عن هذه المدارس ومدى الحاجة إليها قبل قيامِ الحرب العالمية الأولى، وحاولَ رفعَ هذا التقرير إلى السلطان عبد الحميد الثاني، وعرض الأمر عليه، لكنه لم ينجح في مقابلتِه وعرضِ الأمر عليه، وحال الحائلون دون ذلك، مع الوعد بمساعدته في هذا الأمر بالمال الوفير، ثم رفعه إلى السلطان رشاد فتقبَّلَ السلطان عَرْضَه بقبولٍ حسن، وخصّص لعمارة هذه المدرسة عشرين ألف ليرة ذهبية، وبعد عودة الأستاذ الإمام من الأَسْرِ عرضَ الأمر على مجلس النّواب في أنقرة، ورفع إليهم تقريراً عن هذه المدرسة، فوقع على هذا التقرير مئة وثلاث وستون نائباً من أصل مائتي نائب، وكان في الموقّعين مصطفى كمال ومجموعة من النّواب الموالين للغرب؛ المبتعدين عن الدِّين، المتجرّدين عن أصالتهم الإسلامية، وخصّصوا لهذه المدرسة مئة وخمسين ألف ليرة، صرّح بهذا الأستاذ في كتابه «المناظرات» (ص ٩٠-٩١).

وقد كان في السّاحة العلمية حين ذاك مئات أو آلاف المدارس المستمرّة على المنهج القديم، فلم تكن محاولة الإمام هذه إلا لعلمِه بأنَّ هذه المدارس قد أضحَت عاجزةً عن تخريج علماءَ يفون بحاجةِ العصر، ويَقومونَ بوفاءِ الحاجة المتجدّدة للأُمّة الإسلامية.

وقد حال دون تحقُّق أُمنية الأستاذ هذه قيامُ الحرب العالمية الأولى، ووقوع الأستاذ أسيراً في يد الرُّوس، وما أعقب ذلك من الفِتَنِ والقلاقل، والقضاء على الخلافة، وقيام الجمهورية التركية، وسنّ قانون توحيد التدريسات، وما أعقبه وترتَّب عليه من إلغاء المدارس الإسلامية وإغلاقها.

ومن أجل أنّ هذه الأُمنية للأستاذ الجليل لم تتحقّق لم يؤثَرْ عن الأستاذ نظام مفصَّل لهذه المدارس، ولا منهج للدراسة فيها، لكنه أُثِرَ عنه كلامٌ يُبيِّن مُجمل ما كان يتصوّره من النظام والمنهج الذي كان سيضعه لهذه المدارس. وهو قوله:

ضياءُ القلب؛ العلومُ الدّينية، ونورُ العقل؛ العلومُ الحديثة الكونية، وبامتزاجهما تنجلي الحقيقة، وتتربّى همة الطالب، وتُحَلِّقُ عاليًا، وبافتراقهما يتولّد التعصّب في الأولى، والحِيَل والشبهات في الثانية[1].

وممّن كان يُحاولُ إصلاح هذه المدارس ويفكّر فيه الشيخ علاء الدين الخزنوي، كما روى عنه نجله الشيخ عبد السلام، وشيخنا الشيخ محمدالعربكندي، سمعت شيخنا الشيخ محمد العربكندي يذكر مِراراً: أنّ الشيخ علاء الدِّين كان راغباً في هذا الأمر، وأنه كان يُجري استشارات في هذا الأمر بأهلِ الرأي من العلماء المنتسبين إلى آل الخزنوي، لكن أحد أفراد الأسرة الخزنوية كان يَحولُ دون تحقُّق هذا الأمر.

وليس من البعيد أن يكون على عهد أواخر الدولة العثمانية مَن كان يفكِّر في هذا الأمر من كبار العلماءُ لكنه حالَ دون هذه الأُمنية قيامُ الحرب العالمية، وما تلاها من القضاء على الخلافة، ومِنْ حَظرِ تدريس العلوم الإسلامية في تركيا الحديثة، وكان

(١) «المناظرات»، ص٤٢٨.

الحِفاظُ على الموجودِ منها في مثلِ هذا الظروف أقصى ما يتيسَّر أن يقومَ به الغيورون على المدارسِ الإسلامية المخلِصون لدينهم.

وقد حاول الحِفاظَ على مجموعة منها ثلةٌ من كبارِ العلماء المخلِصين في شرقِ تركيا بالرغم من الحظرِ الشديد لها، ومن الخطر المحدِق بالعلماء المحاوِلين لتدريسِ العلوم الإسلامية وبطلابِ هذه العلوم، ومن الفقر الـمُدقِع المخيِّمِ على هذا القطر، فكانت هذه المحاولات المخلصة الشجاعة هي السببُ الوحيد في الحِفاظِ على وجودِ هذه المدارس وفي استمرارها.

❊ ❊ ❊

الخلاصة

والحاصل مما تقدَّم ومن جهودِ الإصلاح والتجديد التي قام بها المصلِحون والمجدِّدون؛ من أساطين علماء الأُمّة وحكمائها الغيورين على هذه الأُمة، وعلى مؤسّسات تعليمِها أنَّ جهودَ الإصلاحِ والتجديدِ كانت قد تركّزت على النقاط التالية:

١ ـ تعديل المقرّرات الدراسية بالحذف والإضافة، بحيثُ تكونُ المقرّرات أقربُ إلى الوفاءِ بحاجة العصور، وأقربُ إلى أذواقِ أهلِه.

٢ ـ إضافة علوم دينية لم تكُن مقرَّرة في هذه المدارس. وأهمّها الحديثُ وعلومُه، والسيرةُ النبوية، والثقافة الإسلامية، والـمِلَل والنَّحَل، ومقارنة الأديان.

٣ ـ مزيد الاعتناء بعلومٍ كانت موجودةً في النظامِ، لكنها لم يكن يُوفَّى حقُّها من الاعتناء والاهتمام كالفقه والتفسير والأصول.

٤ ـ الاهتمام بالإنشاء باللغة العربية، وبالمحادثة بها.

٥ ـ إضافة القدر اللازم من العلوم العقلية والرياضية والاجتماعية.

٦ ـ الاهتمام بتعلُّم اللغات الأجنبية.

٧ ـ الاعتناء بتربية الطلاب تربيةً إسلامية خالصة، والاهتمام بتثقيفهم ثقافة إسلامية، وغَرس الاهتمام بالدعوة الإسلامية في نفوسهم، وتدريبهم عليها وعلى أساليبها، وإثارة النخوة الإسلامية في نفوسهم، وتمكينها في قلوبهم.

الخاتمة

مما ينبغي أنْ يعلم أنّ تعلّم العلوم وتعليمَها على وجه صحيح، وعلى مستوى عال يتربى عليه علماء كبار ربانيون ورثة للأنبياء يقودون الأمة إلى الخير والرشاد، ويعودون بها إلى ريادة العالم والسداد، يرتكز على ثلاثة أعمدة:

الأول: منهاج صحيح، قوي، جامع، متكامل.

الثاني: أستاذ قوي في فنّه الّذي يدرسه، ذو باع طويل فيه، يجيد طريق إلقاء الدرس، يلقي إلى الطالب مجملات العلوم وكلياتها، ويحسن تدريب الطالب وتمرينه على ما يلقيه إليه من المسائل والعلوم، ويكشف له غوامض العلوم ودقائقها. ويكون أسوة حسنة للطالب، صحيح العقيدة، مستقيم السيرة، يلقي إلى الطالب النصائحَ الدينية، ويدربه على الخلق الإسلامي الرفيع، والآداب الإيمانية العالية، ويثقِّفُه الثقافة الإسلامية، ويثير فيه النخوة الإسلامية والحماسة الإيمانية.

الثالث: ذكاء الطالب، وشوقه، وهمته العالية، واجتهاده المتواصل، ونشاطه المتتابع.

من أجل ذلك خصصنا الخاتمة لما يتعلق بهذه الأمور، ورتبناها على الفصول التالية:

١ـ وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادتها.

٢ـ منهاج تدريس العلوم عند الإمام ولي الله الدهلوي.

٣ـ أمور يجب مراعاتها في التدريس.

٤ـ شرائط العالم الرباني المنتصب للدعوة إلى الله تعالى وآدابه.

٥ـ آداب التذكير والوعظ.

٦ـ وصايا مهمة لطالب الحق.

أما الأمر الأول فننقل فيه كلام ابن خلدون، وأما الأمور الخمسة الأخرى فننقلها من خاتمة كتاب «القول الجميل» للإمام ولي الله الدهلوي. ومن وصاياه في «المقالة الوضية».

قال ابن خلدون في الفصل السابع و الثلاثون من مقدمته:

وجه الصواب في تعليم العلوم و طريق إفادتها:

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا و قليلا قليلا يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. و يقرب له في شرحها على سبيل الإجمال و يراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن و عند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم إلا أنها جزئية و ضعيفة. و غايتها أنها هيأته لفهم الفن و تحصيل مسائله.

ثم يرجع به إلى الفن ثانية فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها و يستوفى الشرح و البيان و يخرج عن الإجمال و يذكر له ما هنالك من الخلاف و وجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته.

ثم يرجع به و قد شدا فلا يترك عويصا و لا مهما و لا مغلقا إلا وضحه و فتح له مقفله فيخلص من الفن و قد استولى على ملكته.

هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات. و قد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له و يتيسر عليه.

وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم و إفاداته و يحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم و يطالبونه بإحضار ذهنه في حلها و يحسبون ذلك مرانا على التعليم و صوابا فيه و يكلفونه رعي ذلك و تحصيله و يخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها و قبل أن يستعد لفهمها فإن قبول العلم و الاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا و يكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل و على سبيل التقريب و الإجمال والأمثال الحسية. ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالطة مسائل ذلك الفن و تكرارها عليه و الانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل و يحيط هو بمسائل الفن.

وإذا ألقيت عليه الغايات في البداءات وهو حينئذ عاجز عن الفهم و الوعي و بعيد عن الاستعداد له كَلَّ ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه. وإنما أتى ذلك من سوء التعليم.

ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى أخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره. لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على غايات العلم ، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم. والله يهدي من يشاء.

وكذلك ينبغي لك أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينها لأنه ذريعة إلى النسيان و انقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم و أواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان كانت الملكة أيسر حصولا وأحكم ارتباطا وأقرب صنعة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه. والله علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فإنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معا ويستصعبان ويعود منهما بالخيبة. وإذا تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصرا عليه فربما كان ذلك أجدر لتحصيله. والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب.

❊ ❊ ❊

منهاج تدريس العلوم عند الإمام ولي الله الدهلوي

قال الإمام الدهلوي في «المقالة الوضية»: إن منهاج تدريس العلوم الذي أثبتته التجارب أن يبدأ أولا بتدريس الرسائل الموجزة في الصرف والنحو، وتدرس ثلاث أو أربع رسائل من كل منهما بحسب ذكاء الطالب وحاجته.

ثم يدرس كتاب في التاريخ أو الحكمة العملية باللغة العربية. وفي هذه المرحلة يدرب الطالب على الاستفادة من المعاجم اللغوية واستخراج معاني الكلمات الصعبة منها.

وبعد ما اكتسب قدرة في اللغة العربية يدرس «موطأ» الإمام مالك برواية يحيى بن يحيى المصمودي. ولا يهمل هذا الكتاب أبدا. لأنه أصل علم الحديث ولتدريسه فوائد كثيرة. وقد تسلسل سماعه إلينا.

ثم يدرس القرآن الكريم بالترجمة وبغير التفسير. وإذا أشكل شيء من النحو أو أسباب النزول يوقف عنده ويناقش، وبعد الفراغ من الدرس يدرس «تفسير الجلالين» بالقدر الذي تم تدريسه من القرآن الكريم في الدرس. فإن لهذه الطريقة فوائد.

ثم يدرس في وقت واحد كتب الحديث مثل الصحيحين وغيرهما، وكذلك كتب الفقه والعقيدة والسلوك. وكذلك يدرس كتب المعقولات مثل شرح «الملا» و «القطبي» وغيرهما. وإذا أمكن أن يدرس «مشكاة المصابيح» يوما وفي اليوم الثاني يدرس «شرح الطيبي» بالقدر الذي درس في اليوم الأول من «مشكاة المصابيح»، فإنه نافع جدا.

❊ ❊ ❊

أمور يجب مراعاتها في التدريس

قال الإمام ولي الله الدهلوي في «القول الجميل»: و يجب في التدريس مراعاة أشياء:

١ـ شرح الغريب لغة والعويص المغلق نحوا.

٢ـ وتوجيه المسائل بأن يصورها بالأمثلة الجزئية ويبين حاصلها.

٣ـ وتقريب الدلائل لتحصل النتيجة بلزوم بعض المقدمات لبعض واندراج بعضها في بعض.

٤ـ وفوائد القيود في التعريفات والقواعد الكليات.

٥ـ ووجوه الحصر في التقسيمات.

٦ـ ودفع الشبهات الظاهرة كمختلفين يرى أنهما مشتبهان، أو مشتبهين يرى أنهما مختلفان من المذاهب والتوجيهات والعبارات.

٧ـ وكلزوم ما يمتنع في التعريفات: كالاستدراك، وذكر الأخفى؛ وفي البراهينِ :كجزئية الكبرى، وسلب الصغرى.

٨ ـ أو قادح في اللزوم والاندراج، أو مخالفة بعبارة أخرى، أو لكلام إمام من الأئمة؛ فالعالم لا يفيد تلامذته فائدة تامة حتى يبين لهم هذه الأمور، ثم ينبه عليها في الدرس.

❊ ❊ ❊

شرائط العالم الرباني المنتصب للدعوة إلى الله تعالى وآدابه

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] العالم الرباني الذي يكون وارث الأنبياء والمرسلين هو من يحافظ على أمور:

منها: أن يدرس العلم من التفسير، والحديث، والفقه، والسلوك، والعقائد، والنحو، والصرف، وليس له أن يشتغل بالكلام، والأصول، والمنطق؛ قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

ومنها: أن يتخولهم بالموعظة قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، وليجتنب القصص، فقد روينا في الأصول: «أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأصحابه من بعده كانوا يتخولون بالموعظة»، وروينا في «سنن ابن ماجه» وغيره: «أن القصص لم تكن في زمان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ولا في زمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما»[1]، وروينا: «أن الصحابة كانوا يخرجون القصاص من المساجد»، فعلمنا أن القصص غير الموعظة وأنه مذموم، وأنها محمودة.

فالقصص هو أن يذكر الحكايات العجيبة النادرة، ويبالغ في فضائل الأعمال أو غيرها بما ليس بحق، ولا يقصد في ذلك تدريجُ تلقينهم السنة وتمرينهم بها، بل التشدق والإعجاب والتميز عن الناس بالفصاحة وحسن إيراد الحكايات والأمثال، وبالجملة فالفرق بينهما أمر مهم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٤٤)، وروى عبد الرزاق في المصنف (٢٦١٩٠) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: «لم يقص زمان أبي بكر وعمر، إنما كان القصص زمان الفتنة».

ومنها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الوضوء والصلاة بأن يرى أحدا لا يستوعب الغسل، فينادي: «ويل للأعقاب من النار»[١] ولا يتم الطمأنينة فيقول: «صل فإنك لم تصل»[٢] وفي اللباس والكلام وغير ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والأدب فيهما الرفق واللين، وإنما العنف والشدة شأن الأمراء والملوك، قال الله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

ومنها: مواسات الفقراء وطالب العلم بقدر الإمكان، فإن لم يقدر وكان له إخوان موافقون حرضهم وحثهم على المواساة.

فإذا وجدت هذه الصفات مجتمعة في شخص واحد فلا تشكن أنه وارث الأنبياء والمرسلين، وأنه الذي يدعى في الملكوت عظيما، وأنه الذي يدعو له خلق الله حتى الحيتان في جوف الماء كما ورد في الحديث[٣]، فلازمه لا يفوتنك، فإنه الكبريت الأحمر. والله أعلم.

واعلم أن كل من انتصب منصب الهداية والدعوة إلى الله متى ما أخل في شيء من هذه الأمور فإن فيه ثلمة حتى يسدها.

❊ ❊ ❊

(١) هذا حديث نبوي رواه مسلم (٢٤٢).
(٢) هذا جزء من حديث نبوي رواه الشيخان. البخاري: (٧٦٠)، ومسلم: (٣٩٧) وهو المشهور بحديث المسيء صلاته.
(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

آداب التذكير والوعظ

قال الله تعالى لرسوله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، [الغاشية: ٢١] وقال لكليمه موسى عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾، [إبراهيم: ٥] فالتذكير ركن عظيم.

ولنتكلم في صفة المذكر، وكيفية التذكير، والغاية التي يلمحها المذكر، ومن أي علم استمداده، وماذا أركانه، وما آداب المستمعين، وما الآفات التي تعتري في وعاظ زماننا. ومن الله الاستعانة.

فأما المذكر: فلا بد أن يكون مكلفا عدلا كما اشترط في راوي الحديث والشاهد، محدثا مفسرا، عالما بجملة كافية من أخبار السلف الصالحين وسيرتهم، ونعني بالمحدث المشتغل بكتب الحديث بأن يكون قرأ لفظها، وفهم معناها، وعرف صحتها وسقمها، ولو بإخبار حافظ أو استنباط فقيه، وكذلك بالمفسر المشتغل بشرح غريب كتاب الله، وتوجيه مشكله، وبما روي عن السلف في تفسيره، ويستحب مع ذلك أن يكون فصيحا، لا يتكلم مع الناس إلا قدر فهمهم، وأن يكون لطيفا ذا وجه ومروة.

وأما كيفية التذكير أن لا يُذَكِّرَ إلا غبا، ولا يتكلم وفيهم ملال، بل إذا عرف فيهم الرغبة، ويقطع عنهم وفيهم رغبة.

وأن يجلس في مكان طاهر كالمسجد، وأن يبدأ الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ويختم بهما، ويدعو للمؤمنين عموما وللحاضرين خصوصا.

ولا يخص في الترغيب أو الترهيب، بل يشوب كلامه من هذا ومن ذلك كما هو سنة الله من إرداف الوعد بالوعيد، والبشارة بالإنذار.

وأن يكون ميسرا لا معسرا، ويعمم بالخطاب ولا يخص طائفة دون طائفة، وأن لا يشافه بذم قوم أو الإنكار على شخص، بل يعرض مثل أن يقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟ ولا يتكلم بسقط وهزل.

ويحسن الحسن، ويقبح القبيح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يكون إمعة.

وأما الغاية التي يلمحها: فينبغي أن يزور في نفسه صفة المسلم في أعماله وحفظ لسانه، وأخلاقه، وأحواله القلبية، ومداومته على الأذكار، ثم ليحقق فيهم تلك الصفة بكمالها بالتدريج على حسب فهمهم، فيأمر أولا بفضائل الحسنات، وينهى عن مساو السيئات في اللباس والزي والصلاة وغيرها، فإذا تأدبوا فليأمر بالأذكار، فإذا أثر فيهم، فليحرضهم على ضبط اللسان والقلب، وليستعن في تأثير هذه في قلوبهم بذكر أيام الله ووقائعه من باهر أفعاله وتصريفه وتعذيبه لأمم في الدنيا، ثم بهول الموت، وعذاب القبر، وشدة يوم الحساب، وعذاب النار، وكذلك بترغيبات على حسب ما ذكرنا.

وأما استمداده: فليكن من كتاب الله على تأويله الظاهر، وسنة رسول الله المعروفة عند المحدثين، وأقاويل الصحابة والتابعين، وغيرهم من صالح المؤمنين، وبيان سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

ولا يذكر القصص المجازفة فإن الصحابة أنكروا على ذلك أشد الإنكار، وأخرجوا أولئك من المساجد، وضربوهم؛ وأكثر ما يكون هذا في الإسرائيليات التي لا يعرف صحتها، وفي السيرة، وشأن نزول القرآن.

وأما أركانه: فالترغيب والترهيب، والتمثيل بالأمثال الواضحة، والقصص المرققة، والنكات النافعة، فهذا طريق التذكير والشرح.

والمسألة التي يذكرها: إما من الحلال أو الحرام، أو من باب آداب الصوفية، أو من باب الدعوات، أو من عقائد الإسلام.

فالقول الجلي أن هناك مسألة يُعَلِّمُهَا، وطريقا في تعليمها.

وأما آداب المستمعين: فأن يستقبلوا المذكر، ولا يلعبوا، ولا يلغطوا، ولا يتكلموا فيما بينهم، ولا يكثروا السؤال من المذكر في كل مسألة، بل إذا عرض خاطر فإن كان لا يتعلق بالمسألة تعلقا قويا أو كان دقيقا لا يتحمله فهوم العامة فليسكت عنه في المجلس الحاضر، فإن شاء سأله في الخلوة، وإن كان له تعلق قوي كتفصيل إجمال وشرح غريب فلينتظر حتى إذا انقضى كلامه سأله.

وليعد المذكر كلامه ثلاث مرات، فإن كان هناك أهل لغات شتى والمذكر يقدر أن يتكلم على ألسنتهم، فليفعل ذلك، وليجتنب دقة الكلام وإجماله.

وأما الآفات التي تعتري الوعاظ في زماننا فمنها عدم التمييز بين الموضوعات وغيرها، بل غالب كلامهم الموضوعات المحرفات، وذكرهم الدعوات والصلوات التي عدها المحدِثون من الموضوعات.

ومنها: مبالغتهم في شيء من الترغيب والترهيب.

ومنها: قصهم قصة كربلاء والوفاة وغير ذلك، وخبطهم فيها.

❊ ❊ ❊

وصايا مهمة لطالب الحق

وأنا أوصي طالب الحق بأمور:

منها: أن لا يصحب الأغنياء إلا لدفع مظلمة عن الناس، أو بعث عامتهم على الخير؛ وهذا وجه التوفيق بين الأحاديث الدالة على ذم صحبة الملوك وبين ما صحبهم كثير من العلماء البررة.

ومنها: أن لا يصحب جهال الصوفية، ولا جهال المتعبدين، ولا المتقشفة من الفقهاء، ولا الظاهرية من المحدثين، ولا الغلاة من أصحاب المعقول والكلام، بل يكون عالما صوفيا زاهدا في الدنيا، دائم التوجه إلى الله، منصبغا بالأحوال القلبية، راغبا في السنة، متتبعا لحديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وآثار الصحابة، طالبا لشرحها وبيانها من كلام الفقهاء المحققين المائلين إلى الحديث عن النظر، وأصحاب العقائد المأخوذة من السنة الناظرين في الدليل العقلي تبعا، وأصحاب السلوك الجامعين بين العلم والتصوف غير المتشددين على أنفسهم المدققين زيادة على السنة، ولا يصحب إلا من اتصف بهذه الصفات.

ومنها: أن لا يتكلم في ترجيح مذاهب الفقهاء بعضها على بعض، بل يضعها كلها على القبول بجملة، ويتبع منها ما وافق صريح السنة ومعروفها، فإن كان القولان كلاهما مخرجين اتبع ما عليه الأكثرون، فإن كانا سواء فهو بالخيار، ويجعل المذاهب كلها كمذهب واحد من غير تعصب.

ومنها: أن لا يتكلم في ترجيح طرق الصوفية بعضها على بعض، ولا ينكر على المغلوبين منهم، ولا على المتأولين في السماع وغيره، ولا يتبع هو نفسه إلا ما

هو ثابت في السنة ومشى عليه أصحاب العلم من المحققين الراسخين. والله الموفق والمعين.

تم الكتاب بحمد الملك الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

٢٠١٢/٠٦/٢٦

محمد صالح بن أحمد الغرسي

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥
المقدمة	٧
المبحث الأول: ضرورة إصلاح المدارس ووجوبه	٩
المبحث الثاني: نشأة المدارس الإسلامية	١٩
الفصل الأول: المدارس النظامية	٢٥
(١) نشأة المدارس النظامية	٢٧
(٢) أهم أهداف المدارس النظامية	٣١
(٣) وسائل نظام الملك في تحقيق هذه الأهداف	٣٢
(٤) أثر المدارس النظامية في العالم الإسلامي	٣٣
الفصل الثاني: الأزهر الشريف	٣٥
(١) الأزهر على عهد الدولة الفاطمية	٣٧
(٢) الأزهر في عهد الدولة الأيوبية	٤٢
(٣) الأزهر في عهد المماليك	٤٤
(٤) بدء انحطاط الحركة العلمية وتقهقرها في العالم إسلامي	٤٧
(٥) الأزهر في العهد العثماني	٤٨
(٦) ما تميز به العصر العثماني	٥٢

الموضوع **الصفحة**

(٧) نظام الدراسة في الأزهر قبل تنظيمه ٥٤
(٨) مراحل التعليم في الأزهر قبل تنظيمه ٥٥
(٩) الإنهاض بمصر ورُوّاد نهضته ٥٧
(١٠) الحاجة إلى إصلاح الأزهر، والدعوات إلى إصلاحه، وبيان محاولة ذلك على وجه الإجمال .. ٦٠
(١١) دور الشيخ محمد عبده في إصلاح الأزهر، وهدفه من هذا الإصلاح ٦٣
(١٢) بيان الحاجة إلى تنظيم الأزهر، ووضع القوانين المنظّمة له، وإلى إصلاحه وتجديده على وجه التفصيل ٦٥
(١٣) تنظيم الأزهر وإصلاحه ٦٧
(١٤) أهم محاولة لإصلاح الأزهر، ولتعديل قوانينه ٧٢
ـ القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م ٧٤
ـ قانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦م ٧٦
(١٥) الدراسة في الأزهر الحديث ٨٠
١ ـ كلية الشريعة ٨٠
٢ ـ كلية أصول الدّين ٨١
٣ ـ كلية اللغة العربية ٨٢
ـ الكليات في جامعة الأزهر الشريف ٨٢
ـ الكليات الشرعية ٨٢
ـ كلية الشريعة والقانون ٨٣
ـ كلية اللغة العربية ٨٣
ـ كلية الدراسات الإسلامية والعربية ٨٣

الموضوع **الصفحة**

ـ كلية الدعوة والثقافة الإسلامية ٨٣
ـ والكليات الأخرى ٨٣
ما آل إليه حال الأزهر بعد محاولات إصلاحه من التقدم في الثقافة ٨٤
الفصل الثالث: التعليم الديني في العهد العثماني ٨٧
(١) مدارس الصحن الثماني ٩٠
(٢) المدارس السليمانية ٩١
(٣) بداية الانكماش والتقهقر في المدارس الدينية العثمانية ٩٢
(٤) أسباب جمود هذه المدارس وانكماشها ٩٤
(٥) العلل التي تمكنت في المدراس الإسلامية في العصور المتأخرة ٩٦
(٦) الجهود التي بُذِلت لإصلاح هذه المدارس ١٠٠
(٧) المدرسة الإصلاحية النموذجية في مدينة قونيا ١٠٦
نظام المدرسة الإصلاحية في مدينة قونيا ١١٢
الفصل الثالث: عن المدارس الإسلامية في شرق تركيا ١١٧
(١) صفتها العامة ١١٩
(٢) العلوم التي تُدرّس في هذه المدارس ١٢٠
(٣) مدّة تخرّج الطالب وصفتها التنظيمية ١٢٠
(٤) عمارات المدارس ١٢٠
(٥) الحالة المعيشية والموارد ١٢١
(٦) عدد الطلاب وعدد المدارس ١٢١
(٧) الشيوخ ومستواهم العلمي ١٢٢

الموضوع **الصفحة**

(٨) جوانب الضعف في هذه المدارس ١٢٢
(٩) قائمة الكتب التي تُدرَّس في مدرسة الفلاح في قونيا، والمنهج المتبع فيها ١٢٤
(١٠) محاولة الإصلاح والتجديد للمدارس الإسلامية في شرق تركيا ١٣٠
الخلاصة ١٣٣
الخاتمة ١٣٥
وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادتها ١٣٦
منهاج تدريس العلوم عند الإمام ولي الله الدهلوي ١٣٩
أمور يجب مراعاتها في التدريس ١٤٠
شرائط العالم الرباني المنتصب للدعوة إلى الله تعالى وآدابه ١٤١
آداب التذكير والوعظ ١٤٣
وصايا مهمة لطالب الحق ١٤٦
فهرس المحتويات ١٤٩